نحو أخلاق عربية جديدة

الأخلاق في المجتمعات القديمة والمجتمع الصناعي الحديث

بقلم علي بدور

يجيء بحث الاخلاق والمجتمع ليضع امامنا كثيرا من الاسئلة حول مادة هذه النهضة الجديدة التي يشعر بها مجتمعنا العربي ، وحول مبرراتها الاخلاقية وما هي قيمها الاجتماعية ؟ وكيف يمكن لنا ان نصوغ اسس تطورنا الاجتماعي على اساس اخلاقي يتعدى نطاق الآداب الاجتماعية ليقترن بروح الثورة على الواقع ويطوره على قواعد علمية صرفة تغذي وجداننا القومي وضميرنا الاجتماعي بزاد حي ويدفعهما في طريق التفاعل النامي لبناء الامة العربية بناء جديدا يأخذ من الماضي اصفى ما فيه ، ويضيف اليه انقى تجارب العصر ، ويمزج روحها العربية بجلال الماضي وروعة الحاضر ، ويقيم الانسان العربي على قاعدة من الاخلاق الاجتماعية ليغدو مواطنا تلتقي فيه روعة الانسان وبطولة المواطن الذي يفتح قلبه وعقله لامته وللانسانية ، ويعمل على نشر رسالة المحبة والسلام بين ربوع البشر بما يقدر ويطيق .

نظرة عامة في الاخلاق والمجتمع

ان النظرة العامة في الاخلاق والمجتمع ينبغي لها ان تتجاوز نطاق التسلسل التاريخي لمفهوم الاخلاق ومقومات المجتمع، لاعتقادنا ان المنهجية العلمية في الدراسات الاجتماعية تفيد طالب الدراسة والعالم اكثر مما تفيد القارىء والمستمع ، ولاعتقادنا ايضا ان الوقوف على ما انتهى اليه المفهوم الاخلاقي في العصر الحديث والتجاوز عنه بالتفلفل في صميم المجتمع ، لهو اكثر فائدة للراغبين من الذين يودون ان تنبع معانيهم الاخلاقية من ضميرهم الاجتماعي لتصب في وجدانهم الاخلاقي ، ما داموا قد عرفوا على وجه الدقة ان الاخلاق في اساسها هي سلوك الانسان في حياته الاجتماعية ، وهي جملة الضوابط النفسية التي تسير الناس في المجتمع على قواعد واضحة من الممنوعات والمحذورات التي لا ينبغي للانسان ان يأتيها اذا اريد له ان يكون انسانا يسعى لمجتمعه بقدر ما يسعى لنفسه ، وهي بالتالي ليست محددة بعصر معين ولا مجتمع معين ، لانها متغيرة متطورة من زمن الى زمن ، ومن مجتمع الى جتمع ، تبعا لتأثيرها في الحياة الاجتماعية ، وتأثير الحياة الاجتماعية فيها ، بداعي الخضوع لمنطق العصر وداعي التطور الحتمي .

فاذا اردنا النفاذ الى كنه المفهوم الاخلاقي في العصر الحديث وجدنا البون شاسعا بين ما كان عليه في الزمن القديم وبين ما اضحى عليه في هذا العصر الحديث بالذات . فالفلاسفة اليونان كارسطو وسقراط وافلاطون وهم اول من تحدثوا في الاخلاق وفسروا مفهوم هذا العلم الاجتماعي وعللوه ، لم يكن مدار بحثهم سوى ذلك الانسان الذي ولد في الفكر وعاش فيه . ولقد ظلت المحاولات العديدة التي بذلت لصبغ مفهوم التربية بصبغة اخلاقية ، بعيدة عن مجال التطبيق العملي لان طابع التربية والعلوم في العصور القديمة وحتى بداية هذا العصر الحديث كانت تبذل من أجل تقويم الانسان ككائن حي مستقل بذاته وليست من أجل تقويم فرد في مجتمع او مواطن في دولة . ويظهر لنا سبب ذلك في التاريخ السياسي لنشوء الدول . ففي أيام الفلاسفة اليونان لم تكن الدولة قائمة وفق المعنى الذي وصلت اليه في ايامنا هذه ، حتى أن جمهورية افلاطون وهي بحث اخلاقي محض ، لم تكن تفهم الدولة بالمعنى العلمي للدولة بقدر ما كانت تفهمها نظاما اجتماعيا يقوم على طبقات السادة والعبيد ، رغم انها لم تخل بالمرة من نظرات وآراء كانت تعتبر دفقا ثوريا بالمقياس لما كان يسود الشعب آنذاك من قيم ومفاهيم اجتماعية او معان اخلاقية .

وكانت الاخلاق تدور في فلك التربية المنزلية اي ضمن حدود الفرد ذاته فاذا تعدتها فالى نطاق العائلة وقلما كانت تصل الى المجتمع ، لان الدولة الحديثة التي نعرفها اليوم لم تكن قد ولدت . وتبعا لذلك غمر الفلاسفة في العصور الاولى وحتى العصور المتوسطة طوفان الفلسفة الاخلاقية وتفسير السلوك الاخلاقي على اساس اللذة او الالم ، الخير او الشر ، المنفعة او الضرر ، السعادة او المتعة او الضرر ، السعادة او المتعة ، الغريزة او العادة ، وردوا كل سلوك اخلاقي اما للغريزة التي ندرك بها الخير من الشر او للعادة على اعتبار ان الانسان ينشأ في وسط اجتماعي تقوم فيه الحياة على العادات والتقاليد والاداب الاجتماعية .

وكان ان تأرجحت الاخلاق كعلم اجتماعي طوال قرون عديدة بين حلم الفيلسوف ومخبر العالم وسلوك المؤدب ، وعاصرت تطور التربية الاخلاقية من نطاق الانسان الى نطاق العائلة .. ولكنها لم تستطع ان تدخل غمار المجتمع الا بولادة الدولة الحديثةالتي أخذت على عاتقها ادارة شؤون الانسان من معاش ومأكل وعلم وتربية ، وصارت الاخلاق بمفهومها العصري الحديث سلوكا اجتماعيا يتعدى الفرد كانسان ويمس منه الصميم كمواطن قد انطوى تحت لواء دولة عصرية تسعى لتطوير نفسها بتطوير مواطنيها معها في الوقت نفسه . ولكن كيف حصل هذا التطور كله ؟ وما هي الوسائل التي استعملتها الشعوب للانتقال من مفهوم اخلاقي معين الى مفهوم اخلاقي آخر ؟ وكيف يتأثر المجتمع بالمفاهيم الاخلاقية ؟ وكيف تؤثر المجتمعات في المفاهيم الاخلاقية فتطورها او تغيرها ؟ وما هو سر النظرة الى الاخلاق في مكان وزمان معينين بغير النظرة اليها في مكان آخر او زمان ومكان اخرين؟ وكيف نستطيع ان نعلل تطور المفهوم الاخلاقي من التزام حدود الإداب والسلوك الحسن بين الناس الى التزام موقف من العصر ومن حضاراته ومن التيارات السياسية والاقتصادية التي تتقاذف الامم والشعوب ؟ وكيف لنا ان نعلل مفهومنا نحن العرب الى الاخلاق ونوفق بين حفاظنا على تراثنا الاخلاقي وبين حاجتنا للتطور الذي تفرضه طبيعة العصر وارادة التاريخ .. الى ما هنالك من اسئلة عديدة سوف تجيب عليها دراسة الاخلاق في المجتمع على ممر التاريخ لنقف عند مجتمعنا العربي الحديث .

مقاييس الاخلاق الثلاثة

اذا اردنا ان نبحث ماهية الاخلاق في عصرنا او عصور تلت ، وجب علينا ان نقف قليلا عند مدلولها الاجتماعي وماهية هذا المدلول . لان الاخلاق وهي سلوك الانسان في الحياة لا يمكن ان تبقى كما هي منذ مئات السنين ، فما كان اخلاقيا في عصور مضت قد يغدو عملا غير اخلاقي في عصرنا هذا .. والمجتمع بتطوره وتداخل المجتمعات بعضها في بعض وتشابك عناصر الحضارة واختلاط الشعوب ، قد جعل للاخلاق ميزة المرونة التي تنتقل من واقع الغريزة المتأصلة والعادة الدارجة الى سلوك يكتسب بالتعلم وتصقله التجربة ، فيتجاوب الحكم الاخلاقي على الشيء من نطاق الفرد الى نطاق المجتمع ، وينتقل من حدود العرض الى حدود القانون كما ينتقل من ذات الانسان الى فكره الاجتماعي وتصير له قوة النفاذ في حياة الناس والمجتمع ، فاذا ما زادت فرص التعارف بين

الشعوب وتداخلت مصالحها وتمتنت صلات الود فيما بينهـــا وقامت الاخلاق الدولية مقام المحكمة العليا وقوانينها وقراراتها ، اضحى ضمير الفرد يحكم على التصرف والسلوك وكأنه ضمير انسان عالمي يعيش في دار واحدة هي الكرة الارضية رغم ما فيها من شعوب وأمم واجناس وانماط للحياة البشرية ولكنها كلها تتفق في ان الانسان يسعى لان يوحد جهوده المشتركة من اجل قضية الانسان وحريته وكرامته وتعاونـه مع اخيـه الانسان على اساس من الاحترام المتبادل والثقة والتطلع بأمل الى عالم الغد ، عالم العدالة والمساواة والحرية للشعوب كافة .

ولعل المدقق في سر تحول الاخلاق من تقاليد خاصة بشعب ما في زمان ما ، الى اخلاق عالمية لكل الشعوب لا بد من ان يجد السر في هذا الترابط الذي تزدادا اواصره يوما بعد يوم بين البشـر حتى ليوشـك الانسان شيئا فشيئا ان يغدو مواطنا عالميا بمشاعره وافكاره ولـو كان محافظا في نفس الوقت على خصائصه الإقليمية وصفاته وعاداته وقيمه ، ومعانيه الاخلاقية الموضوعية التي قد يلتزم بها في مجتمعه هنا ، ولا يلتزم بها في مجتمع آخر هناك .

ونستطيع ان نفسر سبب ذلك التطور في المفاهيم الاخلاقية الـى مقاييس ثلاثة . الاول منها هو وحدة المعرفة الانسانية ونعني بها وحدة الفكر البشري والمعارف المكتسبة وتمتع سائر شعوب العـــالم بهـــا . فالفلسفة اليونانية مثلا لم تقتصر على الشعب اليوناني وحـــده بـــل حاولت شعوب اخرى ان تنقلها الى لغاتها وتدرسها وتضيف اليهـا ، واول هذه الشعوب الشعب العربي الذي حضن الفلسفة اليونانيـــة وحفظها من ضياع ، ودرسها وناقشها ومن ثم صار نقلها الى الغرب عن طريقه .. والى جانب الفلسفة كانت العلوم والاداب والمعارف الاخرى تحظى بمثل هذا الحرص وتلك الرعاية ، مدللة على وحدة الفكر البشري ووحدة اتجاهاته لخلق الاساس المتين لحضارة الامس وحضارة اليوم .

وهذه في الوقت نفسه الحضارة الغربية مهمـــا كانت صفاتهـــا ومقوماتها ، فوائدها او مضارها ، فانها لم تبق محصورة في اوروبـــا . فالقطار ينشر دخانه في القارات كلها ، والكهرباء تنير ملايين البيـــوت ، والذرة تحطم الجبال وتشق العوائق وتسير السفـــن وتعد الصـــواريـــخ للكشف العلمي ، هذه الحضارة الغربية هي ايضا قد توزعت العالم كله بما رافقها من تطور صناعي قلب صورة المجتمع القديم من مجتمع زراعي الى مجتمع صناعي ، حيث الكتل الكثيفة من الناس ، والمدن الكبـــرى والمداخن العالية ، الى درجة نستطيع ان نقول فيها ان انسانا جديدا قد ولد متسلحا بمعارف الاقدمين وخبرة المعاصرين يوشك ان يغدو نمطـا واحدا لكل انسان في القارات الخمس .

فاذا تخطينا وحدة الفكر البشري الى المقياس الثاني وهو وحـــدة الشعور الانساني الذي يتلاءم مع الفكر ليدلل على وحدة الحياة الانسانية، كان لنا ان نفسر هذا الشعور الانساني بجملة الحوافز النفسية والطباع ورد الفعل الذي تحدثه حادثة واحدة في الوجدان والضمير ، وما نعطيه من معادلات للقيم والحوافز النفسية عندما نريد ان نجسدها في حـكم اخلاقي يستند على بداهة الشعور الطبيعي الذي يختزنه كـل انســان ليطلقه في كل مرة تدق يد الحادثة الخارجية فيها صدره لتستخـــرج حوافزه النفسية هذه وردود فعله المخبأة .

والانسان في كل مكان وزمان ينطلق من حدود معينة الى حدود أبعد منها في التعبير عن رقي فكره ورقي شعوره الانساني ، وهناك حد ادنى لا يمكن للانسان ان يصل اليه مهما تدنت مكانته في سلم الحضارة وكذلك افكاره ومشاعره لانه يظل انسانا يمكن له اذا مدت له اليد الرحيمة ان يتطور وينهض بالقدر الذي تسمح به ملكاته ومواهبه الفطرية ، وحسب الكيفية التي تقدم له فيها تلك المعارف والعلوم لتجعل منه انسانا عـلى صورة العصر الذي يعيش فيه ووفق طرازه .

ويبقى المقياس الثالث وهو وحدة الوسائل والغايات ، ويمكن لنا ان نفهم هذا المقياس الثالث اذا وقفنا على الغاية من الحياة . ولا بأس من استعراض بعض النظريات التي نادى بها العلماء حول هذه النقطـة بالذات.فبعضهم قال ان الغاية من الحياة هي السعادة او اللذة واجتناب الالام .. وهذه مطامع الانسان في كل عصر وفي كل مجتمع ، وتتجمـع غايات الافراد لتغدو غاية المجتمع او غاية الدولة ، ويدب الصراع بـين المجتمعات وما في المجتمعات من فئات ، وبين الدول لحماية السعـــادة لشعوبها او للاستزادة منها . وقد رفض بعض العلماء قبول هذه النظرية القائلة بأن غاية الحياة هي السعادة لانهم لم يقبلوا تحصيل هذه السعادة بوسائل غير اخلاقية . فالسارق مثلا يستطيع ان يعيش سعيدا بعـــض الوقت بما سرقه اذا غفل عنه القانون الوضعي ، ولكن القانون الاخلاقي يلجأ الى محكمة الضمير التي لا تقبل بسعادة تأتي عن سرقة الغير وتسبب الضرر والاذى له .

وقالت فئة ثالثة من العلماء بأن غاية الحياة هي اجتناب الآلام لان اجتناب الآلام هو السعادة الحقة ، لكون الحياة تعبا متصلا ، وقد اتهم هؤلاء العلماء بالتشاؤم لانهم لم يروا في الحياة الا ليلا متصلا ، وغفلت اعينهم وقلوبهم عن النهار المنير . ولا بد في مثل هذه الحال من ان يكون هناك ضابط لوحدة الوسائل والغايات وان يكون هذا الضابط اخلاقيا ، وهو ما نطلق عليه اسم الضمير، سواء أكان ضمير الفرد أم ضمير المجتمع. ودراسة وسائل الانسان وغاياته تفسر لنا معنى النضال من أجل كسب لقمة العيش والعيش بأمن وطمانينة ، وتكوين العائلة ، والتآلف بين الناس يتكلمون لغة واحدة توحدهم عواطف متقاربة ومشاعر غـــير متباينـــة ، وافكار بناءة ، وتقف هذه الوسائل والغايات عند نزوع الانسان بما يملك من وسائل لجعل الحياة اكثر سعادة وأقل الما ، طامحا الى استمرار هذه السعادة التي حصل عليها وعدم تبديدها او استبدالها بالالام والاشجان.

فلو اردنا الان ان نرتب هذه المقاييس الثلاثة التي ارجعنا اليهـا سبب التطور في المفاهيم الاخلاقية من نطاق الفرد الى نطاق المجتمـع الواحد ، ومن نطاق المجتمع الى نطاق العالم البشري لوجدنا ان عامـل الوسائل والغايات وان كان اقدمها في الظهور ، الا انه اقلها تأثيرا .. بينما وحدة الفكر البشري وتطورها وتأثيرها في الحياة والناس والمجتمع قد تكون متأخرة في الظهور الا انها اكثر تأثيرا في الانسان وفي حضارته من جملة الوسائل والغايات التي تحدد سلوكه وتضبط نشاطه .. امـا وحدة الشعور الانساني فهي القاسم المشترك بين وحدة الفكر وبين وحدة الوسائل والغايات ، لان الانسان بلا شعور ولا عاطفة ، يظل فكره جامدا وتظل وسائله وغاياته عارية مما يكسبها نضارة المعرفة وخضرة المشاعـر وحماسة الامل .

ان الانسان امضى الكثير من القرون الى ان بدأ يفكر تفكيرا علميا.. وعمر حضارتنا الحديثة لا يتجاوز خمسة قرون .. ولقد قطع الانســان اميالا كثيرا الى ان قفز جواد الحضارة قفزته الاخيرة في هذه القـــرون الخمسة .. واذا كان تطور الانسان فيما مضى قد كان على اساس عددي فان تطوره الحضاري اليوم على اساس هندسي .. واننا اذ نعـــرض لتطور المفاهيم الاخلاقية في المجتمعات القديمة لا بد من ان نلمس الفرق بين تطور العالم القديم وتطور العالم الحديث لنجد ما حل بالمفاهيـــم الاخلاقية وبالاخلاق كعلم على ضوء الحضارة الحديثة التي ولدت قيمـا جديدة تتلاءم مع طبيعتها وخصائصها ولنجد اخيرا ما حل بالمجتمعـــات القديمة وكيف تولت عنها اردية الحضارة القديمة لترتدي اردية جديدة من صنع حضارة هذا العصر الذي نعيش فيه .

الاخلاق في المجتمع الرعوي

نستطيع ان نقسم تطور المعاني الاخلاقية الى ثلاث مراحل . مرحلة المعاني الاخلاقية في المجتمع الرعوي ، ومرحلة المعـاني الاخلاقية فـي المجتمع الزراعي ، ومرحلة المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي .

ان للمجتمع الرعوي اخلاقه التي تصوغها طبيعـة المجتمع ونزوعه. ولا نستطيع ان نعلل الاسباب كلها على اساس الفعاليات الاقتصاديـــة وحدها . لان الرباط الاجتماعي في المجتمع الرعوي يقوم عـلى ربـاط الـدم .. وانصر اخاك ظالما او مظلوما هو شعار التعـاون مـن اجـــل الحياة .. والغزو مباح بين الجوار قربوا او بعدوا وهو في الوقت نفسه محرم بين ابناء المجتمع ذاته . والسرقة .. ونطلق عليها اسم السرقـة

تجوزا ـ فعل يدل على البطولة شريطة ان لا تقوم على سرقة الاقرباء .. وقد تتمايز المجتمعات الرعوية بعضها عن بعض ، ولكنها كلها تتفق في انها تتطور تطورا بطيئا لا يتعدى حدود الفطرة ، قد خلت من المعارف والعلوم والاداب الا ما كان فيها من شعراء وحكماء انضجتهم السنون . ولعلها ظاهرة جديدة بالتسجيل وهي خلو المجتمع الرعوي من الطبقات الا طبقة الاسرة الحاكمة .. اما عدا ذلك فرأس المال ظاهر جلي فيما يملكه مواطن للمجتمع الرعوي من ماشية ودواب وخيل للركوب . فاذا عرفنا ان الرأسمال النقدي واستثماره هو الذي يفتح باب التطور الاجتماعي على مصراعيه لقيام الافراد بنشاط اقتصادي مما يؤدي الى تمايز المجتمعات في تعدد الطبقات الاجتماعية وتعاملها بعضها مع بعض ، ادركنا لماذا لم تتطور المجتمعات الرعوية تطورا ايجابيا يبقي على خصائصها ويضيف اليها خصائص جديدة .. ولم يكن التطور المرتقب الا باستقرار المجتمع الوعوي في أرض معينة وزراعتها وتحول الرعاة الى مزارعين.. او فنائها بالغزوات والحروب المحلية الصغيرة .

فاذا اردنا ان نطبق المقاييس الاخلاقية الثلاثة على المجتمع الرعوي ، وجدنا ان وحدة الفكر البشري تكاد تكون شبه معدومة لان نشاط الانسان منصب كله على تأمين اسباب الحياة وجعل الوسائل والغايات في متناول الايدي من اجل العيش والحماية والامن . اما وحدة الشعور الانساني فان العاطفة وحدها بلا علم ولا ثقافة تجعل حماسة الانسان من اجل العيش حماسة مادية بحتة لا تتعدى الطعام والشراب والزواج . دون مزج الفكر بالشعور لتولد الوسيلة وكذلك الغاية وهما اللتان تؤلفان قاعدة المثل الاعلى للانسان في الحياة .

ويأتي الحديث عن المرتكز الاخلاقي في المجتمع الرعوي او منبع المعاني الاخلاقية فلا نجده يتعدى حدود الغريزة والعادة دون تطوير ولا تعديل ، لسببين اولهما عدم الاخذ باسباب المعرفة الانسانية وعدم الاختلاط بالاخرين من الاغراب ، وهذا وحده سبب بقاء كثير من المجتمعات الرعوية على حالها دون ان تتطور عما كانت عليه منذ الاف السنين ، ولذلك نجد ان اسباب التطور الجديدة قد وجدت من يأخذ بها دون تعليل ولا تفسير لاكتشاف العلل والاسباب ، ويظل هذا طابع المجتمع الرعوي دون تغيير او تبديل لانه مجتمع قد تحددت فيه نماذج الحياة وتوطدت القيم الاجتماعية واتبعت قواعد السلوك ، وصار للفرد اهداف محددة يعرفها الابناء عن الآباء والاجداد ، وتظل متوارثة منتقلة من جيل الى جيل الى ان تمر ريح التطور فوق صفحة الحياة الاجتماعية الهادئة ، فتهتز قليلا او كثيرا ، وتنقل المجتمع من حال الى حال ، مما يبشر بولادة المجتمع الزراعي وطبقاته الاجتماعية وقيام علاقات جديدة من التعامل بين الافراد وبين المجتمعات المتقاربة جغرافيا وحضاريا ، فكأن عربة التطور البشري بعد ان انهك جيادها العدو المستمر ، قد وقفت اخيرا .. وبدلا من الترحل والتنقل فقد حولت الجياد اصيلة كانت أم غير اصيلة الى جياد تسحب المحراث من الافق الى الافق لتكتب على الارض البكر قصة المجتمع الزراعي وقصة المعاني الاخلاقية فيه .

الاخلاق في المجتمع الزراعي

ان البساط السندسي الاخضر الذي كان شعار المجتمع الزراعي هو الذي بسطته حوافر الجياد وهي تسحب المحراث خلفها ، وهو الذي اقام البيوت بدلا من الخيام ، فاستقر الانسان ذلك الاستقرار الذي مكنه من التطلع الى السماء لدراسة النجوم والافلاك ، واضحى بحاجة الى كيان يحميه كفرد ، فولدت فكرة الدولة ، والى شيء آخر يحميه كانسان فتكشفت له البصيرة عن وجود الله فعبده في الشمس والقمر وفي الريح والحجر .. الى ان جاءت الكلمة المقدسة من السماء فكانت قوافل الرسل تترى للهداية والارشاد .. ولا بد لنا من الوقوف لحظة عند فكرة الدين في المجتمع الزراعي ، تلك التي لازمت استقرار الانسان في الارض ، لان التفكير عدو الرحلة والتنقل ، والانسان كالشجرة لا يمكن ان تعطي ثمارها الا اذا غاصت جذورها في اعماق الارض ، وكذلك الانسان : انه لا يستطيع ان يفكر مهما كان التفكير ومن اي نوع كان الا اذا وقف واستقر وابتنى البيوت للسكن والعبادة واخذ يحاول ان يتعلم ويكتشف المعرفة وان يمزج شعوره الانساني بالمعارف الجديدة ، وان يحول وسائله وغاياته نحو طريق تفصح عن سمو الشعور ودقة المعرفة .

وقد تطورت الاخلاق في المجتمع الزراعي تطورا شبه جذري عما كانت عليه في المجتمع الرعوي لتغير الطبقات من طبقة مالكة للقيادة الى طبقة مالكة للارض ، وتغير العلاقة من رابطة تقوم على الدم ، الى رابطة تقوم على الولاء والتعاون بين مالك الارض والعاملين فيها ، وقامت الاخلاق الدينية مقام الاخلاق الرعوية ، واضحت المعاني الاخلاقية مجردة بعض الشيء عما كانت عليه في السابق ، واضحت السرقة مثلا ، سرقة سواء أكانت عن غريب او قريب ، واضحى العقاب ملازما لكل مخالفة تقع على اوامر سلطان اولى الامر ، ولم تعد مناصرة الاهل والاقرباء على الظلم موضع ترحيب وتقلصت فكرة القربى وصار الفرد مسؤولا عن نفسه الا بما قيدته به عن حب وطواعية نزعة الاخلاق الدينية والتضحية في سبيل الله ونشر العدل والمحبة بين الناس .

وولدت من جديد الاخلاق الدولية التي تدعو الى تغيير الوسيلة القديمة وهي الحرب الى الوسيلة الجديدة وهي السلم ، وان كانت الحرب ظلت تستعمل كآخر مرحلة للتفاهم او لفرض الصلح على العدو .

والفكر في هذه المرحلة اذا كان قد وضع نفسه في خدمة قيم عدا المجتمع واخلاقه ، فانه ظل بحاجة الى ان يفتح جناحيه على مداهما كي يحلق في سماء المعرفة والاستقلال واخضاع ظواهر الطبيعة للمناقشة والدراسة والاقتناع عن بصيرة وحكمة .

ولقد حققت العلاقات الاقتصادية اثر قيام الممالك والدول في نشر العادات والتقاليد والافكار خارج حدود المجتمع الذي نشأت فيه ، كما اخذت صلات الشعوب تتعمق فيما بينها للاستفادة من خبرات بعضها بعضا ووضع هذه الخبرات في الموضع الذي يفيد ، وتطور مفهوم الحكم من سلطان يقوم على اغتصاب الولاء ، الى سلطان يقوم على ارضاء الله

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	» »	»
السنة الرابعة	١٩٥٦	» »	»
السنة الخامسة	١٩٥٧	» »	»
السنة السادسة	١٩٥٨	» »	»
السنة السابعة	١٩٥٩	» »	»
السنة الثامنة	١٩٦٠	» »	»
السنة التاسعة	١٩٦١	» »	»

وتنفيذ مجمل ما تأمر به القواعد الاخلاقية التي اضحت طابع المجتمع الزراعي . ولقد كان الفكر الديني خطوة الى الامام في المجتمع الزراعي لانه ضرب العادات والتقاليد القديمة في الصميم ، وربط وسائل الانسان وغاياته بالمعرفة الانسانية والشعور الانساني مهما كان حظ الانسان في ذلك الوقت من المعرفة بسيطا ومهما كانت ظلال الشعور رقيقة . كما بلور الفكر الديني عادات جديدة للمجتمع ، نشرت بشكل واسع عن طريق الحروب الدينية محلية كانت أم عالمية . ولقد ساعدت هذه الحروب الدينية ، وتسمها حروب الفتح ، على قيام اتصال كبير بين الشعوب ونقلت تبعا لذلك كثيرا من المعارف والعلوم والادوات والصناعات اليدوية . فالفكر اليوناني لم يكن متيسرا للعرب ان ينقلوه الى لغتهم ويضيفوا اليه من عندهم الشيء الكثير لولا حروب الفتح وتحرير مصر والشام والمغرب من احتلال الاجانب ، وقيام الفكر الفلسفي لدى العرب الذي فلسف فكرة الله والجبرية والاختيار ، ولولا العرب لما وصل هذا الفكر الفلسفي الى اوروبا .. وهو الذي كان منطلقا للفكر الاوروبي الحديث الذي مهد للحضارة الصناعية والمجتمع الصناعي الوليد .

وتتميز طبقات المجتمع الزراعي عن طبقات المجتمع القبلي بميزتين ، الاولى هي ان الاستقرار في الارض قد فتح الطريق امام البناء والانشاء وقامت قواعد اخلاقية تبرر سلطان الحكام على الرعية تارة باسم الله لما دعمتهم به السلطة الدينية في اوروبا مثلا من قوى معنوية لا قبل للحكام على مقاومتها ومن بينها مرور التيجان من تحت يدي البابا وات لتوضع على رؤوس الملوك والاباطرة ، وتارة باسم تملك الارض وما عليها مما انشأ طبقة رقيق الارض ، واضحت بذلك الامارات الاقطاعية هي الدول النامية آنذاك ، ولم تكن هذه الدول سوى المدن الصغيرة المتناثرة على الخريطة . اما الميزة الثانية فهي ان الاستقرار في الارض قد يكون استغرق عدة قرون ، وكذلك الحروب الدينية بين الشرق والغرب قد اتاحت للافكار الكبرى ان تنضج على نار هادئة ، تلك الافكار التي ناقشت القواعد الاخلاقية التي كان الضمير البشري يباركها لملاءمتها روح العصر وحركة التطور آنذاك ، ولكن ذلك لم يمنع الافكار الكبرى المطورة للاخلاق والمجتمع ، من ان تنمو في كثير من الرؤوس المفكرة ، بعد ان مدتها بالحماسة قلوب كبيرة متعطشة للحرية ، حرية الانسان العادي في ان يكون سيد نفسه وسلطان عصره لا ينازعه في هذه السيادة انسان آخر الا بالحق .

ومع الفكر الذي ولدت بذوره في المجتمع الزراعي ، وضعت اللبنة الاولى للتطور الانساني ولما اتى بعد ذلك من العلوم والاكتشافات ، وليس ضروريا ان يكون ذلك قد وقع بصورة دقيقة ومفصلة ، بل ان استقرار الانسان في الارض واخذه مشكلات حياته بالتفكير والدراسة والتأمل قد فتح في نفسه دروبا جديدة ، وفجر ينابيع ثرة ، وانمى حياته بالخصب والنماء والتنوع ، وجعل لها معنى بحيث اذا تطورت يوما بعد يوم كان هذا التطور مؤديا الى نتيجة وصادرا عن فكرة تنبع من عقل الانسان ومن قلبه لتصب في مجتمعه الصغير والمجتمع الانساني الكبير ، معبرة عن وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ، واضعة وسائل الانسان وغاياته امام محكمة الضمير الاجتماعي ، منتظرة اصدار الحكم الاخلاقي بحماسة صافية مهما كان الحكم ومهما كانت نتائجه .

والواقع الذي لا جدال فيه ، ان الاخلاق في المجتمع الزراعي قد اخذت شكلا ومضمونا لا يختلفان عن شكلها ومضمونها في المجتمع الرعوي فحسب بل انها ولدت من جديد على اسس روحية ومادية توازن فيها احساس الانسان بعالمه الداخلي ، باحساسه بالعالم الخارجي ، وتأكدت الى حد بعيد ولادة الوجدان الاجتماعي الذي يصدر الاحكام دون ان يقف محاسبا البشر على عدم تنفيذها بقدر ما يلجأ الى ضمائرهم التي صاغتها التربية المنزلية والمعاني الاخلاقية التي جاءت بها الاديان ، وكرس لها الفلاسفة والمفكرون والمصلحون جل وقتهم وعنايتهم ، واذا كان من صفات الاخلاق في المجتمع الزراعي ، الاستقرار وعدم التغير ، فان السبب لذلك هو ان الاتصال بالارض والتوفر على خدمتها ورعايتها، يخلق من العادات ما قد تصبح طبيعة ثانية مما يمكن بها مقاومة كل الافكار الجديدة التي تنادي بتغيير قواعد السلوك وتطوير الاخلاق نحو المضمون الذي يكرس احترامه للانسان ومقاومته لمحاولات الضغط عليه باسم العادات حينا والتقاليد احيانا .

ولقد تطورت المعايير لاخلاقية الانسان في المجتمع الزراعي عنها في المجتمع الرعوي . ففي المجتمع الرعوي كان المعيار الوحيد لاخلاقية الانسان ولااخلاقيته هو مدى دفاعه عن اقربائه الذين تربطه بهم صلات الرحم والدم مهما كانوا مخطئين او مصيبين ، وكذلك عدم انتهاك حرمات هؤلاء الاقرباء ولا اموالهم مع استباحة كل ما للغريب وبخاصة اذا كان عدوا .. ونستطيع ان نصنف المعايير الاخلاقية في المجتمع الرعوي على اساس غير مجرد، بمعنى ان الخير ليس خيرا لذاته بقدر ما هو خير نسبي وان القيمة الاخلاقية التي تعطى لفعل من الافعال ، تتغير بحسب تغير هذا الفعل وتغير الشخص الذي صدر عنه . فالاخلاق هنا شخصية ليست مطلقة مادية ان صح التعبير وليست مجردة او معنوية .

اما في المجتمع الزراعي فقد حدث تطور شبه كلي بحيث صارت المعايير الاخلاقية مجردة عن الاشخاص الذين يمكن الحكم عليهم بمقتضاها .. وصار الخير خيرا لذاته والشر شرا لذاته ، ولم تعد مناصرة الاخرين محمودة ولو على الحق الصراح لقيام الدولة ودفاعها عن مواطنيها متخذة بذلك دور الرئيس في المجتمع الرعوي ووضعها القوانين والانظمة وتعاملها بالاعراف والعادات التي ثبتت اخلاقيتها .

ونستطيع هنا ان نقول ان الانسانية قد وجدت نفسها منذ ان صارت المعاني الاخلاقية معاني مجردة ومطلقة تتصل بالفكر والشعور وتخضع لوازع الضمير والوجدان ، وتشمل مختلف الناس على الرغم من اختلاف العروق والاجناس ، وبذلك سمقت شجرة المعاني الاخلاقية عالية وسط مجتمع مهذب من الناس وفرشت ظلها الظليل لتقيهم وهج الشمس المحرقة .

وفي المجتمع الزراعي حدث ذلك التفاعل بين المعاني الاخلاقية والفكر البشري الذي مهد لولادة البذور الاولى للمجتمع الصناعي .

اننا امام مجتمع زراعي عرف الاستقرار وسادت فيه المعاني الاخلاقية التي ركزتها على اسس واضحة مجموعة القيم الدينية التي كانت تهدف الى خلق الانسان الصالح لذاته وبذاته من خلال تعامله مع الاخرين . ولقد كان من الممكن ان يستمر المجتمع الزراعي الى الابد لولا ان الفكر الذي انبثق من ميزة الاستقرار وتناول الانسان مشكلات حياته القريبة او البعيدة ، بالتأمل والدراسة والمناقشة وتبحره في الاصول الدينية للتفكير لمعرفة القوة الالهية وادراك معجزاتها ـ ان ذلك كله قد مكن الانسان من استعمال فكره في هذه الامور كلها .. وقد ساعد الانسان على ذلك ما ادخرته المعرفة الانسانية منذ عصر الفلسفة اليونانية وعصر الفلسفة العربية التي كانت بحق خيطا متصلا للفكر الانساني على صعيده الفلسفي حتى اذا تجمع هذا الزخم الفكري كله وجد البيئة والمناخ لينطلق من جديد واضعا للبشرية سلما جديدا للقيم ، مناقشا القيم السابقة مبشرا بولادة العقل الذي هو وحده السلطان والحاكم ، فاتحا بهذا العقل اشرعة المجهول لينقب ويدرس ويضع مشاهداته على محك التجربة . فما وجده العقل فهو الموجود ، وما لم يجده فهو الغائب الى حين يثبت فيه العقل وجوده مرة ثانية .

ان الفكر الذي ولد في رحاب المجتمع الزراعي هو الفكر نفسه الذي اخضع للمناقشة كل القيم التي اتى بها المجتمع الزراعي . وان الفكر الذي انطلق من ذات الانسان معبرا عن قوة العقل وسلطانه هو الفكر الذي جاء بالعلم . ذلك الذي ولد من تماس الفكر بالطبيعة . وان الفكر الذي حاول فهم الطبيعة بوضعه القوانين لظواهرها وتفسير هذه الظواهر قد ولد علم الرياضيات على اسس جديدة . وان الفكر الذي ولد علم الرياضيات ذلك الذي ساعد على فهم الكثير من خواص الاجسام والمعادن والظواهر الطبيعية والفلكية قاد المعركة من جديد لولادة علمي الفيزياء والكيمياء .

وان الفكر الذي تمخضت عنه هذه العلوم عاد من جديد وقد تسلح بها كلها لدراسة الانسان والطبيعة على قواعد علمية تمخضت عنها

في النهاية بذور جديدة لحضارة تشرق على الانسانية حتى اذا نجحت اكثر هذه المحاولات في حقلي الفلسفة والعلوم انتقل الانسان لتطبيقها على واقعه ومجتمعه فكانت نظرية الجاذبية وكان اختراع البخار ... وكانت الالة شعار المجتمع الصناعي الجديد مبشرة بحياة جديدة للبشر جميعا وكانت قوة العقل قوة لا تغلب .

فما هو هذا المجتمع الصناعي وما هي خصائصه وما هي معانيه الاخلاقية ؟

الاخلاق في المجتمع الصناعي

ان المجتمع الصناعي كان ولاشك وليد النهضة العلمية في اوروبا تلك التي مكنت لها الافكار الفلسفية والاتجاهات التحررية في السياسة والدولة والحكم بحيث اتخذت عدة اتجاهات في آن واحد . فمن الثورة على سلطان الباباوات الى الثورة على الظلم الاجتماعي الى الثورة على القيود التي اورثتها العصور الوسطى للفكر والمفكرين الى ما هنالك من اتجاهات جديدة في انظمة الحكم والدول والحروب المحلية واكتشاف امريكا وانقراض الامبراطوريات وقيام الدول الحديثة على اساس القوميات وتطاحن هذه القوميات فيما بينها مخلفة وراءها جملة الحروب الدينية.. ان ذلك كله يشكل الصورة الجانبية للتطور الاجتماعي الذي تمخضت عنه اخلاق جديدة لازمت ولادة المجتمع الصناعي وشبت معه . اذ في معزل عن هذه التطورات العامة التي مست حياة الافراد والجماعات كان هناك مخلوق يولد من جديد هو انسان العصر الحديث ، وقد تزود بكل المكتسبات في حقل العلوم والفنون والاداب كذلك بكل المنجزات في حقل التربية الاجتماعية وسائر الاكتشافات في حقل علم النفس بفورها الى اعماق الذات الانسانية وتشوفها الى عالم متحرر من الخوف قادر على تهيئة السعادة للاخرين . ولقد ساهمت هذه المنجزات العلمية المتطورة يوما بعد يوم وكذلك المنجزات الاجتماعية في بلورة القيم من جديد وصياغتها بالاسلوب الذي يتلاءم وحضارة العصر والانسان الجديد . وقد تغيرت تبعا لذلك كثير من المعتقدات المادية في حقل العلوم وكذلك المعتقدات الروحية وما يتصل منها بالفكر الفلسفي وعلم النفس وعلم الاجناس وعلم التطور وانبثقت افكار جديدة ليس لها علاقة بالافكار التي كانت سائدة في المجتمع الزراعي لتسهم في دفع عجلة التطور الى الامام في طريق المجتمع الصناعي ، مخلفة بعض الضحايا في كثير من الاحيان دون ان تقف عن الدوران ، ومن دون ان تتوقف عن التقدم مهما كلفها ذلك من تضحيات .

ان وقفة قصيرة عند شكل هذا التطور الجديد قبل النفاذ الى مضمونه نخرج منها بنتائج ظاهرة ، منها ان سلطان الكنيسة الديني قد خف تدريجيا على الحكام ملوكا واباطرة . وخفت حدة الخلافات الدينية بين الدول لتقوم على اساس القوميات واللغات والمشاعر الوطنية ، وضعف سلطان العائلة داخل الدولة الواحدة في الوقت الذي اشتدت فيه سلطة الدولة على الفرد واضحت فكرة الوطنية والدفاع عن الوطن من المعاني الاخلاقية التي تبذل من اجلها الدماء والارواح ، وتوضحت الى حد بعيد القيم الاجتماعية من خلال المعاني الاخلاقية بالنظر الى الانسان وعدم الحكم على نواياه والاكتفاء بالحكم على افعاله الخارجية ومحاسبته عليها .. اذ في الوقت الذي ازداد ارتباط الفرد بالدولة ، كانت هناك فكرة رائدة تقضي بترك الانسان حرا فيما بينه وبين نفسه للاعتقاد بالقيم الروحية او مناقشتها ، ولم يعد الجهر بكروية الارض مدعاة لسجن غاليلو كما حدث له يوم جهر بفكرته .. واضحى الايمان وهو شعور شخصي محض ، موزعا بين بعض القيم الروحية وبين الانسان وبين العلم الذي اضحت سيطرته على الطبيعة تزداد شيئا فشيئا لقهرها واخضاعها لمشيئة الانسان . ولم يعد من الحرج في شيء الجهر بفكرة ما واخضاعها للدراسة والمناقشة ولو كانت هذه تشكل شيئا من القدسية لدى المجتمع لان المبدأ الاول هو ان الانسان حر في نقد ما يريد ما دام يتخذ الاسلوب العلمي في النقد بادئا بذاته ومن ثم بالاخرين ومن ثم بالعالم المحيط به .

ان التطور البشري في المجتمع الصناعي قد بدأ على خط مستقيم بعد ان كان قبلا يجري حول دائرة مفرغة ، فالزراعة والمحراث المستعمل في فلاحة الارض لم يتطور خلال الاف السنين ولكن اختراع اول محراث حديدي فتح الباب لمحاريث جديدة اخر .. انتهت بان اصبحت الالة في الزراعة كالالة في الصناعة تصنع كل شيء.. والجواد الذي كان شعار المجتمع الزراعي والرعوي كذلك ، لم تتغير سرعته عن ذي قبل ولكن اول سيارة ظهرت كانت تسير بسرعة بطيئة ، فاذا قورنت باخر سيارة تنتجها المصانع اليوم ندرك موضع التطور وسر التقدم السريع ، وكذلك الطائرة ، والسفينة ، والبرق والهاتف والتلفزيون . فالاساس لنوعية التطور وماهيته لا يقاس بالتغيرات الظاهرية لان تلك من العوارض ولكن يقاس بالدافع والجوهر بالمضمون الكلي بالمعاني الاخلاقية التي هضمت تطور العلم واخضاع الفلسفة والعقل كل القيم السابقة ، للانتقاد والتمحيص . وقد ذهب كثير من الدارسين ضحية النظرة الاولى لحضارة المجتمع الصناعي عندما درسوا نتائج هذه الحضارة وخلعوا عنها اردية الاخلاق والمثل العليا ليظهروها وقد تعرت من اسباب البقاء لتؤدي واجبها من اجل الانسان والانسانية . ان المنبع الاول لحضارة المجتمع الصناعي هي الدلالة على عبقرية الانسان ونضوجه العقلي ومحاولته تسخير الطبيعة لامره والعيش في الحياة دارسا متأملا باحثا عن حلول صريحة لكل مجهول يتبدى له ، معبرا بذلك عن مدى التجاوب بين سلطان العقل وروح التطور وبين مقتضيات العلم الحديث ومواضيع الحياة القائمة ، وبين خضوع الانسان للقوى الحيطة به، وتمرده عليها ومحاولة اخضاعها لامره وتسخيرها لارادته .

وتتجلى مظاهر تطور المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي بتحرر الانسان من المعاني الاخلاقية التي جاءت في المجتمع الزراعي لتواصل دعمها لانظمة الحكم بين رجال الدين الذين كانوا يمثلون الكنيسة وبين الملوك والاباطرة الخاضعين لاولئك درجة فدرجة الى ان يصلوا الى الاله في الدرجة العليا الاخيرة . واذا كان نفوذ رجال الدين قد خف وتلاشى نهائيا مع مطلع عهد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فان قوة جديدة ولدت على مسرح المجتمع هي قوة الرأي العام او قوة جماهير الشعب المؤلفة من قوى الافراد العاديين مهما ضؤل شأنهم وقلت قيمتهم في سلم المراتب الاجتماعية ، ومراتب الثورات والانساب ، واستقطبت كلمة الشعب ما يقال عن هؤلاء تخصيصا او تعميما . لان القانون الاخلاقي الذي اخضع المجتمع الصناعي لقيمه المعنوية هو قانون ينظر الى الافراد دون ان ينظر الى وجوههم او ثيابهم بل ينظر الى ذواتهم الانسانية ، فكل ذات انسانية هي روح وكل روح هي انسان ، وكل انسان هو فرد في المجتمع ومواطن في الدولة .. وكل مواطن له حق وعليه واجب .. وما دام القانون الاخلاقي اخذ يمس الفرد وحده في المجتمع الصناعي فان المعاني الاخلاقية قد توزعت تبعا لذلك ، نشاطات الفرد وميوله الفكرية والسياسية واراءه الاجتماعية ، ومعتقداته الروحية ، واضحت الاخلاق عموما في المجتمع الصناعي ليست حسن السلوك واجتناب المساوىء وعدم الكذب والسرقة وغش الاخرين فحسب ، بل اضحت ايضا والى حد كبير التزاما خلقيا بموقف معين من القضايا الاجتماعية ، والمبادىء العامة والدعوات الكبرى والاشخاص الساعين اليها ، واضحى التغير عنها والانقلاب عليها دون مبرر ودون اقناع ، مدعاة للحكم على من تغير او انقلب او تلون ، بانه اخضع نفسه لمنطق المنفعة والغاية السيئة متخذا التنكر للمعاني الاخلاقية وسيلته العاجلة لقضاء مآربه وتحقيق مراميه ، وهذه اول لبنة في اساس تطور اخلاق المجتمع الصناعي دون ان تصدر عن دافع روحي او غيبي ، لصدورها عن العقل الاجتماعي الذي اخضع التطور لعملية النقد الذاتي وجعل الانسان ذا ارادة ووعي ، تلتزمان حدود التطور الاجتماعي ما دام يوافق منطق العقل والعلم والتجاوز عنه اذا جمد عن مسايرة داعي التقدم المستمر الذي تسعى اليه البشرية في جميع العصور .

ان ظاهرة ارتباط الاخلاق بالفكر السياسي والاجتماعي في المجتمع الصناعي ، هي ظاهرة تأتي في الدرجة الاولى من سلم التطور . ولم يكن

مقبولا ولا مستطاعا ان يحدث مثل هذا الانقلاب في التكوين الاجتماعي لولا ان القيم الاخلاقية التي ولدت من جديد كانت تحث على مثل هذا التلازم بين الفكر السياسي والاجتماعي وبين الاخلاق ، ولولا ذلك التلازم الذي رافق الدعوة الى مثل هذا الوعي الجديد بحيث يدل دلالة قاطعة عى ان قوة الحافز الاخلاقي في المجتمع الزراعي قد ضعفت وتلاشت الى درجة جرأت عليها بعض حملة المشاعل من المفكرين والمصلحين الاجتماعيين ، كي ينيروا طريق التحرر من الجهل والعادة المستحكمة والطلاسم باتخاذ العقل حاكما والعلم مرشدا ، والفكر هاديا الى طريق المعرفة ، لتتابع طليعة المجتمع البشري رحلة التطور المبدعة وتدق ببيدها القوية باب المجتمع الصناعي وتدعو الرواد من المصلحين والمفكرين والعلماء والباحثين الاجتماعيين والمؤمنين بالحضارة الصناعية والمجتمع الصناعي وبالالة شعار تلك الحضارة ، للعمل وفق اسلوب علمي وعلى اسس عقلية ، لمتابعة عملية التطور ومدها بزادها من السهر والتعب والتضحية .

وقد توفر للمجتمع الصناعي من القيم الاخلاقية الجديدة ما جعلت له مسالك جديدة في دروب التطور بعد ان اضحى المجتمع الصناعي مقسما الى دول تقوم على رابطة الدم واللغة والمشاعر القومية نتيجة لاضمحلال كيان الدولة على اساس من المشاعر الدينية فلما قامت الدولة القومية عادت الى مسرح الحياة السياسية بعض العادات المستحكمة في المجتمع الرعوي دون ان تقف منها الاخلاق موقفا معاديا ولكن بفارق واحد ، هو ان المواطن في المجتمع الرعوي كان لا يحاسب على ما يفعله بالاعداء المجاورين وقد يتحمل المجتمع نتيجة عمله ، كما قد يتكتل الكثير للاغارة على جيرانهم ، ولكن الاخلاق الجديدة في المجتمع الصناعي تحاسب حسابا اخلاقيا معنويا وماديا على كل الاعمال التي يرتكبها المواطن داخل الوطن او خارجه اذا سرق او قتل داخل وطنه او خارجه . لان الانسان قد تحرر من الالزام المادي والمعنوي الذي يفرض عليه من الخارج ، وخضع بمحض ارادته للالزام المعنوي المنبعث من داخل النفس ، ذلك الالزام الذي هو القانون الخاص او العام داخل حدود دولته او خارجها . كما تجلى الطموح الفردي في طموح المجموع. فالفرد طموح داخل حدود الوطن ، ولكن طموح المجموع تمثله الدولة ويقوم عنها بذلك سفراؤها ووزراؤها المفرضون ، فاذا زاد الطموح الى درجة السيطرة قامت الحرب التي تعتبر تصرفا طارئا تقتضيه الاخلاق ما دامت للدفاع عن النفس ، وهي موقف تنفر منه الاخلاق اذا كانت هجوما وعدوانا . ولقد تأصل الحكم على الحرب كاسلوب غير اخلاقي الى ان قامت منظمة الامم بعد الحرب الاولى وهيئة الامم المتحدة بعد الحرب الثانية ، لتمثل الى جانب محكمة لعدل الدولية ، يد الضمير الدولي عندما تمسك بميزان العدالة وتحمل سيفها للدفاع عن القيم الاخلاقية في العالم كله . ولقد نفذت الاخلاق الى صميم فكرة الحرب واعتبرتها اسلوبا غريزيا بدائيا ورفضت اعتبارها قدرا لا مناص عنه ولا مهرب لان المجتمع الصناعي وقد حرر الانسان من اثار الماضي السيئة ، جعل الفكر هو الدلالة الوحيدة على قوة الذات الانسانية ، وهي القوة المعبرة التي يلجأ اليها الانسان لشرح افكاره وتبيان وسائله ، واذا كانت الحرب قدرا فلتكن هي حرب الافكار والعقائد والقيم الاجتماعية والمعاني الاخلاقية ، وهذا مما يبشر بولادة عالم خال من الحروب ليعيش البشر في طمانينة وسعادة .

فاذا تساءلنا الان عن خصائص القيم الاخلاقية في المجتمع الصناعي وجدناها قائمة على ـ ثلاث خصائص . الخاصة الاولى منها هي ان الاخلاق كشعور ذاتي خاص بالانسان وحده قد نمت نموا كبيرا الى جانب تطور الانسان في حقل العلوم النظرية والعلوم التجريبية ولكنها قصرت عن مجاراة ذلك النمو في الحقل الاجتماعي ... ولو اردنا تبيان نوعية المبرر الاخلاقي الذي كان يبرر مثلا تشغيل الاطفال في المعامل اكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميا وباجرة لا تسد الرمق ، لحار اللب في ذلك حيرة بالغة ، ولكن قيام مناصري هؤلاء البؤساء بالدعوة لتحديد ساعات العمل والتهاب الرأي العام حماسة لهذه الفكرة وخاصة بين ابناء الطبقات الاجتماعية المعدمة قد حرك شراع الضمير عندما واتته الريح الخيرة . ولم يكن مسموحا في بدء النهضة الصناعية ان يقول داعية الى الخير والحق ان هؤلاء المساكين مظلومون ويجب انصافهم . لان الانسان كان انذاك لا يزال قليل القيمة . وكان ينظر الى قوته وما يمكن ان تؤدي من العمل مثل ما ينظر احدهم الى بغل او حمار ... ولذلك فان سلم القيم الاخلاقية اذا كان قد دخل معارك جزئية كتحسين احوال العمال وتامين اسباب المعيشة لهم والعناية الصحية بابدانهم ، فان معركته العريضة كانت تأكيد احترام الذات الانسانية واحترام القيم الانسانية والمثل العليا ، بدفع اخلاقي كان يزداد حدة وعنفا كلما ازداد اعداء الانسان والانسانية تطرفا .. ولقد جرب المصلحون جميع طرق الدعوة للاصلاح واستعملوا الوصفات المستعملة في المجتمع الزراعي. فلم يجدوا اذنا تصغى او قلبا يحس . لان المجتمع الزراعي كان يقاوم في احيان كثيرة الطبيعة نفسها وما تمثله من غموض محير للعقول ، ويعتمد على الريح والمطر والشمس وهذه كلها قوى لا قبل للانسان على اغضابها او مقاومتها ، ولذلك كان من الممكن ان يستمع الانسان وليد المجتمع الزراعي للنصائح والمواعظ والتحذيرات فيرعوى اذا قدر له ان يرعوى .. ولكن انسان المجتمع الصناعي اختصر الشمس والريح والمطر بحرارة البخار والكهرباء واقامة السدود وحصر وعيه كله في هذه الالة التي تقدم له الانتاج الوفير وما عليه الا ان يقدم لها المعامل التي يشرف عليها او يرعاها ... ان والفكر وكان يقف عندها الوجدان وينتصب الضمير محاسبا ... وباتت الالة والحالة هذه سيدة صاحبها وسيدة العامل عليها ، تسوقهما معا في طريق الاحتراب الاجتماعي ، الكلامي حينا ، الدموي حينا اخر وقسمت المجتمع الى فئات وتوزع راسمال بين المالكين وغير المالكين احدهما يملك

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ق.ل ـ ٣٧٥ ق.س

دار الآداب

الاخلاق في المجتمعات

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

المال والاخر يملك القوة لاستثماره والعمل على تنميته وزيادته ، وكانت الاخلاق الاجتماعية تتوزع الفئات وتقوم على اساس المباديء والقيم التي ترعاها كل فئة من فئات المجتمع ، ولكن الاخلاق ظلت تتابع خط سيرها العام وانتقلت هذه الاحساسات الاخلاقية التي تشبه نبضات قلب كريم من صدور المتحسسين بها والداعين اليها ، الى ان وصلت مجالس النواب والحكومات فادخلتها في صلب القوانين ، لتنتقل من كونها قانونا اخلاقيا تحاسب على مخالفته محكمة الضمير ، الى قانون وضعي تحاسب على مخالفته محكمة تحكم باسم الشعب دون ان تترك للاقدار محاسبة اولئك الذين لا يرجعون الى جادة الصواب الا اذا وجدوا اقوى منهم يرغمهم على ذلك . وانها لخطوة عريضة تلك التي خطاها المجتمع الصناعي في حقل التحرر ، بالقياس الى خطى التحرر في المجتمع الزراعي . فرقيق الارض ظلوا مستعبدين الاف السنين دون ان يستطيعوا تحرير انفسهم الا في فترات قصيرة تشبه توهج الذبالة في المصباح قبل ان تنطفىء . ولكن المجتمع الصناعي حقق تحرر الفئة العاملة من سلطان الالة عليها في مدى قرن كامل على وجه التقريب . ولعل سبب ذلك كله لا يعدو ان يكون سوى سرعة التطور في جمود الميادين وفي مختلف المجالات . فسرعة التطور لا تحتمل بقاء الاوضاع الاجتماعية على حالها لان جمود المجتمع جمود للتطور ذاته . والحضارة الصناعية التي اتخذت العلم جوادا لها قد انطلقت على متن الريح وركبت للجواد جناحين واردفته بمحرك من صنع الانسان ، فكان هذا التجاوب وهذا الاقبال على الحياة الجديدة شعارا اخلاقيا نفذ الى ضمير المجتمع فهزه هزا عنيفا ودفعه للتجاوب مع الاوضاع الجديدة بشكل قد يدهش الناظرين الى ظواهر الامور ، ولكنه تجاوب طبيعي عند من ينظرون الى بواطن الاشياء ويخضعون الاسباب والنتائج للتحليل والتعليل المبنيين على قوانين المنطق والعلم .

اما الخاصة الثانية من خصائص المعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي فهي ان المجتمع بعد انشطاره بحكم توزع رأس المال الى فئتين فئة ارباب عمل وفئة عمال ، وقيام الفئة الوسطى بينهما ، فقد اقترنت في هذا المجتمع المعاني الاخلاقية المتعلقة بسلوك الانسان وتهذيبه وانطباق مشاعره مع الاتجاه الانساني العام ، كما اقترنت المعاني الاخلاقية فيه بالقيم الاجتماعية ، واضحى الدفاع عنها دفاعا عن وجود فئة بأكملها ، ولم تعد الاخلاق سلوكا مهذبا فحسب بقدر ما اضحت التزاما لمباديء السياسة والاجتماع ووضع الحلول لاصلاح الامراض الاجتماعية كما اضحت المعاني الاخلاقية تقييما للافعال التي تصدر عن افراد معينين بحيث تمس نوعيتهم الاجتماعية، ونوعية الوسائل المستعملة والاهداف التي يسعون اليها. وبانتقال الاخلاق من نطاق السلوك المهذب الى نطاق الالتزام الهادف او الالتزام بعقيدة من العقائد ، انتقلت الاخلاق من كونها احساسا الى كونها فكرا وعلما ، لما رافق التطور الاجتماعي من تطور فكري وعلمي ، بحيث ارتقت مدارك الانسان الفكرية ونمت ملكاته العلمية واضحى يستزيد من فيض الحضارة الجديدة ، وصارت له خطة وهدف يسعى اليها واوشك ان يكون له موقف من حضارة العالم ، موقف اخلاقي يوجهه في الطريق التي ينبغي على الانسان ان يتابع المسير فيها ليؤكد ذاته ويكتشف انسانيته . ولقد ادى مثل هذا النضال القاسي المرير في حقل الاخلاق الجديدة لتتناسب مع التطور الاجتماعي في المجتمع الصناعي الى ترسخ المعاني الاخلاقية الجديدة في ضمير الانسان الجديد وشمولها كل خطوة من خطواته في طريق حياته ، وانبثقت عن هذه المعاني الاخلاقية فلسفات جديدة تعالج الانسان كموضوع قائم بذاته، وتحلل مواقفه من هذه الحضارة الصناعية وتكشف عن افراح قلبه ومأساة وجدانه في آن واحد ، وتحاول ما استطاعت ان تبرر سلوكه المصيب او الخاطيء ، فتقوم بذلك كله الانسان حسب فلسفات جديدة تحاول ان تفهم الانسان وتضعه حيث يجب ان يكون من العالم الذي يعيش فيه ، والطبيعة التي يكتشف خفاياها ، والحياة التي يريد ان يدرك اسرارها .

اما الخاصة الثالثة فهي الاتجاه بالاخلاق اتجاها علميا صرفا قائما على الحقائق المادية التي يمكن اكتشافها بالحواس وبالوسائل العلمية الاخرى ودراستها على انها علم قائم بذاته له اصوله وقوانينه . وهذا الاتجاه ليس وليد الحماسة المفتعلة لكل ما هو علمي او طبيعي بقدر ما هو انعكاس تقتضيه ضرورة الوصول الى الحقيقة ، ان لم تكن الحقيقة النسبية التي تناسب مكانا وزمانا معينين. لان الدراسات التي وجهت للاخلاق قد نفذت الى صميم العمل الاخلاقي وقامت مدارس وتشعبت هذه المدارس تبعا لتشعب الاراء فيما بينها بصدد تحليل المفهوم الاخلاقي ودراسته والخروج منه بنتائج معينة وتطبيق هذه النتائج على الوقائع المعروضة باسلوب علمي صرف . ولم يكن الهدف من ذلك كله هو عزل المفاهيم والقيم الروحية عن التأثير في المجتمع مع ما جاءت به من الزامات ادبية او اخلاقية او قانونية ، بقدر ما كانت طبيعة المجتمع الصناعي تقتضي مثل هذا المنهج العلمي الذي حدد منابع المعاني الاخلاقية في نفس الانسان ولتصويرها وتحليلها ، وتفسير السلوك الانساني والعاطفة الانسانية وارادة الانسان التي تقدم على فعل الخير ولو لم تستطع ان تتجنب الشر . وكذلك تفسير الفعاليات البشرية المقرونة بالبحث عن السعادة والطمأنينة وايجاد اللذة التي تنجم عن كل عمل يقوم به الانسان في معاشه ومأكله وملبسه ومشربه ، والتدقيق على هذه البواعث كلها والانفعالات كلها والتوفيق فيما بينها وبين طبيعة الانسان وواقع حياته والظروف الطبيعية وغير الطبيعية التي تمر به وبمجتمعه ، فتلزمه حينا حدود مثله العليا واحيانا تضطره للخروج عليها. وبذلك كله ، فان المجتمع الصناعي قد هز شجرة الاخلاق القديمة هزا عنيفا بحيث اسقط اوراقها وثمارها وحاول ان يمدها بما يغير لها من طبيعة هذه الاوراق والثمار ، حتى اذا وقفنا على ما انتهت اليه حرية الفرد وجدنا انها بدأت حرية سياسية ثم اقتصادية ، ثم اجتماعية، ثم شخصية ، ولم تقف حركة التطور لمفهوم الحرية عند هذه الحدود بل مست المعاني الاخلاقية للمجتمع الزراعي ، وبخاصة مفهوم حرية المرأة اذ ان الواقع الذي انتهت اليه حرية المرأة ما اورث المرأة سلوكها الاجتماعي، انما هو واقع معاش معترف به .. الامر الذي حدد الى حد كبير ، دروب التطور التي مست حياة الانسان ، متخطية الجنس واللون والنوع ، ناظرة للانسان كانسان ، ولم يحدث ذلك الا من جراء الايمان بالعلم وبالحضارة الجديدة التي اخضعت للتبدل كل القيم المتوارثة عن المجتمعات القديمة رعوية كانت ام زراعية . وقد ساعد انتشار الحضارة الصناعية على قيام المدن وولادة واجب العمل على كل فرد الذي هو حق في نفس الوقت ، والنظرة الاخلاقية القاسية التي يوجهها المجتمع الى كل فرد قادر على العمل دون ان يعمل ، والى كل مجتمع لا يهيىء اسباب الرزق لكل فرد نشدت في وجهه ابواب الرزق رغم حرصه على ايجادها ، مما وفر للانسان شيئا من الاستقلال الداخلي يوازي الشعور بالسيطرة عليه من قبل المجتمع والدولة في نفس الوقت ، ولكن ضمن حدود لا يطغى فيه شعور على شعور ولا تفقد فعالية الانسان فضيلة المبادهة الفردية والانطلاق في العمل المبدع حتى ابعد الحدود التي يسرتها حضارة العصر لانسان العصر .

هذه هي الخصائص الثلاث للمعاني الاخلاقية في المجتمع الصناعي ، فاذا اردنا استعراض وحدة المعرفة الانسانية التي هي وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات ، وجدنا ان الفكر البشري ، لم يستقل استقلالا حقيقيا عن باقي المؤثرات مثل ما هو مستقل في المجتمع الصناعي . فالاخلاق ليست ايجابية احيانا ، انها سلبية في احيان كثيرة . وقد وقفت الاخلاق السلبية موقفا عدائيا من تحرر الفكر وتطوره . وكم من مفكرين اعدموا ورواد قضية قد احرقوا بالنيران، وكم من ضحايا ذهبت فدا . للتحرر الفكري من الاخلاق

السلبيه التي كانت شعاراتها « لا تفعل كذا ولا تقدم على كيت » . والفكر البشري اذا كان قد استقل في المجتمع الصناعي فانه قد حصن هذا الاستقلال بالكثير من احترام الانسان واحترام حريته ومكتسبات نضاله الاجتماعي، ولم يصبح الفكر قوة مستقلة مؤثرة في تطور الانسان والعالم الا عندما ادرك المفكرون انفسهم ان الفكر قوة لا تغلب لانها قوة العقل ، والعقل اقوى ما في الانسان.ونظرة تلقى على خريطة العالم تعطينا ان وحدة الفكر البشري لم تكن حقيقة واقعة مثل ما هي اليوم . اذ ان وحدة الحضارة ووحدة قضاياها ومشكلاتها قد اوجدت وحدة في الرأي الذي تكونه الاحاطة بما في العالم الخارجي للانسان مع ما في عالمه الداخلي بالذات وهكذا تبدأ وحدة الفكر قضية فردية تخص انسانا معينا ، ثم لا نلبث ان تشمل الناس كافة وتنتقل عبر الحدود والقارات لتشمل العالم كله . وقد اضحت وحدة الفكر البشري قضية من القضايا التي تعكس مضمونا اخلاقيا حيا يلتزم به المؤمنون بالفكر وبالعقل والعلم وبوحدة الحضارة ، يدفعهم ذلك الايمان الى المزيد من الاصرار على مناقشة قضايا الانسان بعيدا عن اللون والعروق والجنس واللغة .. وقريبا قريبا من انسانية الانسان وافكاره الانسانية وقيمه العليا في الحياة . ولقد تخطى الفكر البشري حواجز الاخلاق الوضعية التي قد تتأثر بالعصبيات والعواطف الوطنية ليؤكد من جديد ان الفكر البشري ليس عدوا لكل خلق وضعي او وطني بقدر ما هو مع كل خلق لا يكره العالم من اجل محبة الوطن .. بل يحب العالم كله لانه يحب الوطن . وقد اكدت وحدة الفكر البشري في المجتمع الصناعي ان القيم الاجتماعية ، والاخلاق من هذه القيم الاجتماعية ، لا ينبغي ان تتعادى ليسود بعضها بعضا ، بقدر ما يجب ان تتصافى وتعمل على اعلاء كلمة الانسان ورفع مداركه ومعارفه الى المستوى اللائق به وبانسانيته .

ان هذا كله تؤكده وحدة الشعور الانساني على المستوى الاخلاقي . اذ ان الحياة الاجتماعية في العصر الحديث ونتيجة لتطور المجتمع الصناعي ومحاولته التأثير في حياة الناس كافة ، قد ربطت بين تطور الفكر وتطور الشعور ، وهما خاصتان انسانيتان ، وجعلتهما متوازيين يعملان بقوة واحدة نحو غاية واحدة . كما كان من خصائص وحدة الشعور الانساني على المستوى الاخلاقي ، ان وحدة الشعور هذه قد تطورت في اتجاهين احدهما فردي بحت وخاص بحت ، متعلق بالانسان وحده كممثل لهذا العالم الذي يزعم نفسه انه جرم صغير وفيه انطوى العالم الاكبر كما يقول الشاعر العربي . وكذلك احساس هذا الانسان انه لا يحجبه عن البشرية كلها احد ، فهو صورة العالم وهو اطار الوجود . وهو الذي تعيش في عالمه الداخلي كل المعاني الاخلاقية الرفيعة التي هي موقف من الافراد الاخرين ومن المجتمع ومن العالم ومن حضارته بالذات ومن قضاياها السياسية والاجتماعية والروحية .. وهو يجد نفسه تبعا لانتشار وسائل المعرفة البشرية بين الناس قد اكتسب مزيدا من رقة الشعور والعاطفة للمشاركة في القضايا التي يتعرض لها الناس في مختلف البلاد والقارات . واضحى تصرف انسان ما في اخر الدنيا مدعاة لاسف البشرية كلها اذا كان تصرفه لا يتفق واخلاق العصر ونبالة الانسان ذي الفكر الحر والشعور السامي . ونجد سر ذلك في تطور المعاني الاخلاقية ، ففي المجتمع الرعوي كان الفعل السيء لا يعاقب عليه الا اذا عرف مرتكبه ، وفي المجتمع الزراعي كان الفعل السيء لا يعاقب عليه الا اذا عرفت نية مرتكبه ، ولكن في المجتمع الصناعي وعلى صعيد وحدة الشعور الانساني اضحى العقاب على الفعل السيء قاعدة اخلاقية ، ولو لم يعرف من هو الشخص الذي ارتكبه .. ووحدة الشعور الانساني اليوم لا تقبل الظلم من غريب على قريب ولا العكس بل هي لا تقبل الظلم والقسوة ولا الجور على اي انسان في هذا العالم . وهذا تطور واي تطور قد خطا بالسلوك البشري من سلم السلوك المتوارث الى سلم السلوك المأمول وصار الامل واقعا معاشا واضحت قضية احترام الانسان قضية انسانية .

وتأتي وحدة الوسائل والغايات لتعكس مضمون العمل الاخلاقي بصورة جذرية فلا تصدر الا عنها وبسببها ، بعد ان كانت وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات في المجتمعات القديمة تتفاوت في التطور تبعا للظروف والاحوال فلا تلتقي الا قليلا وقد تظل منفصلة بعضها عن بعض الى فترات طويلة ، ولكنها في المجتمع الصناعي متلازمة متناسقة متحدة لا تنفصل . فانسان المجتمع يعيش حياته وقد اختلطت فيه بتناسق وانسجام وحدة الفكر البشري ووحدة الشعور الانساني ووحدة الوسائل والغايات . والانسان في المجتمع الصناعي ذو قيم ومثل عليا ومعان اخلاقية تضفي على فكره البشري حرية الاعتقاد وحرية الايمان بالطبيعة والعلم ، كما تضفي على وحدة الشعور الانساني فيه المزيد من الحساسية بكل ما له صلة بقضية ما من القضايا الانسانية ، وتحاول قدر ما تستطيع ان توحد وسائله وغاياته في الحياة مع مقتضيات الايمان بوحدة الفكر البشري والتسليم بوحدة الشعور الانساني . فاذا اردنا تقييم الاعمال من حيث اخلاقيتها ولا اخلاقيتها وجدنا ان الاعمال الاخلاقية ما كانت منسجمة والصفات الثلاث في الانسان تلك التي تحرك في نفسه المشاعر وفي عقله الافكار وفي ارادته العزم والتصميم لتكون حياته الداخلية وحياته بين الناس صورة للخلق الذي مخضت عنه حضارة العصر ومشيئة التاريخ . وبخاصة بعد ما تأكد الانسان انه غير مضطر لان يتناقض في حياته من اجل التوفيق بين وسيلة العيش اليومية وغايته البعيدة كما ان المجتمع والدولة وكذلك المجتمع الانساني والدولي ،.قد وجدت انه ينبغي للانسان ان يعيش كريما حرا ، قد امن حاجاته ما دام يعمل وفق ما تسمح به قواه . وصارت الحياة الاجتماعية السليمة تكفل للعاملين وللراغبين في العمل ولو لم يجدوه مستوى كريما من العيش . وتطور المجتمع الصناعي من مجتمع لا يجد غضاضة في تشغيل الاطفال اكثر من اثنتي عشرة ساعة في بدء النهضة الصناعية ، الى مجتمع يكفل حياة هؤلاء الاطفال وحياة ابائهم ، باخضاعهم لنظام التأمين الاجتماعي ، فتوشجت بذلك في المجتمع الصناعي وسيلة الانسان التي ينبغي ان تكون خيرة لتحقق له السعادة ، بغاية الانسان التي يجب ان تكون هي الاخرى خيرة لتجلب له السعادة النابعة من المعاني الاخلاقية الاصيلة التي تؤكد ذلك وتسعى اليه وتصر عليه ما وسعها الاصرار ولم يعد امام الانسان الا ان يغني عقله بالمزيد من الفكر البشري الصافي وان يمد قلبه بالصافي من الشعور الانساني النبيل ، ليفرش دروب حياته بوسائل نبيلة واهداف سامية ، ليكون بحق جديرا بلقب الانسان الذي عرف نفسه وخبر مجتمعه ، واكد انسانيته .

منشأ المعاني الاخلاقية

انقسم الرأي في منشأ المعاني الاخلاقية بين الدارسين الى عدة اراء ابرزها القائل بان الاخلاق رغم ما يشوبها من ردود الفعل الغريزية والفطرية لا تصالها بالطبيعة الانسانية تنشأ عن القيم الفكرية وبالتالي عن الفكر وعلى رأس هؤلاء القائلين نجد كانت وهيغل .

كما نادى الفلاسفة الماديون وعلى رأسهم انجلز وماركس بان القيم الاخلاقية والفكرية في مجتمع ما هي نتيجة انعكاس التطور المادي لوسائل الانتاج فيه . .

فالاخلاق عند الفريق الاول المنادى بان الفكر اصل كل شيء هي عطاء الفكر والروح وليس لادوات الانتاج ولا لوسائله ولا لطبيعة التطور الاجتماعي علاقة في منشأ الافكار والمعتقدات والقيم الاخلاقية .

بينما ينادي الفلاسفة الماديون بان الفكر مادة جامدة اذا لم تحتك بالمجتمع، فاذا احتكت بهسالت حياة وحضارة. فالعادات والتقاليدوالطباع والاخلاق والقيم الاخرى هي كلها انعكاس عن طبيعة المجتمع ودرجة تطوره في سلم الحضارة ، فاذا تطور المجتمع وجدنا ان العادات والتقاليد والطباع والاخلاق والقيم الاخرى هي ايضا تتطور ولا يمكن لها ان تتطور الا اذا تطورت وسائل الانتاج تطورها الفاعل ، فالاخلاق التي يخلفها مجتمع زراعي هي غيرها التي يخلفها مجتمع رعوى ، وهي غيرها في المجتمع الصناعي .

ويرد على هؤلاء الفلاسفة الماديين اولئك الفلاسفة العقليون بان الفكر

ليس مادة جامدة ولكنه مادة مطورة ، ولا يمكن لاي تطور مهما كان نوعه ان يحدث الا اذا كان الفكر له باعثا .. وهذه العقائد الكبرى والرسالات الاجتماعية والمبادىء المطورة لعالم الانسان ، هي كلها فكرية .. هكذا بدات وهكذا تابعت طريقها الى ان اخذ بها الناس وسلموا بقوتها وتاثيرها على نفوسهم وعقولهم . واننا اذا كنا نريد ان نحصر اسباب التطور كلها في سبب واحد هو تغير وسائل الانتاج فاننا كمن يحاول ان يغمض عينيه عن الشمس ذاتها ليبحث عنها في اشعتها المنسربة عبر ثقب مفتاح باب من الابواب المغلقة .. ان الفكر اصل كل شيء وهو القيمة ، وهو الجوهر ، وكل ماعداه فباطل وزائل .

ويمتد الجدل بين الفريقين وهو وان لم يكن جدلا واقعيا ولكنه مثبوت في كل راي من اراء الفريقين بشكل يكاد يؤلف محاورة لا نهاية لها تدلل على ان الفريقين معا لم يغفلا في الاساس نظرية الغريزة والعادة المتاصلة في اعماق الانسان ، وكذلك لم يغفلا الدافع لكل عمل فردي او اجتماعي ابتغاء اللذة او السعادة ، وان العمل الاخلاقي هو ما كان متوافقا وشعور الانسان في الحياة ومنسجما وهدفه واندفاعه نحو هذا الهدف بالوسائل كلها والغايات كلها ، وهو كذلك ما وافق الضمير البشري فلم ينغص على الضمير طمانينته ولا هدوءه .

ولكن المدارس تشعبت بعد ذلك لتعليل اسباب تطور المفاهيم الاخلاقية التي تبرزها المعاني الاخلاقية على نطاق الاخلاق كعلم من العلوم الحديثة وتعنى بسبب تحلل القيم القديمة وقيام قيم جديدة محلها في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية على الدوام .. وهم وان ردوا الاسباب كلها للفكر لانه يطور الحياة الاجتماعية ويطور بالتالي العادات والتقاليد ، فيمس هذا التطور اخلاق المجتمع في الصميم . الا ان الفريق الثاني- فريق الفلاسفة الماديين اقتصر في تبيان دور الفكر على المرحلة الثانية .. وعد اسباب التطور في المعاني الاخلاقية الى تطور وسائل الانتاج ، الامر الذي لا يمكن حسمه في سطور قليلة ، ولكن لا بد من التاكيد على ان عملية التطور في ذاتها هي عملية معقدة .. ولا يحلها قولنا ان الفكر هو الاساس ، او ان تغير وسائل الانتاج هو الاساس ، بقدر ما ينبغي ان نحلل عملية التطور نفسها التي هي رغم كونها عملية معقدة الا انها في حقيقتها علمية طبيعية سواء اكانت معقدة ام سهلة ..

هناك اذن رغم العسر الذي يطبع حركة التطور بطابعه المعقد ، نظرة نلقيها على المجتمع الانساني كله لنجده مقسما الى مجتمعات بشرية تختلف عن بعضها بعضا ، لغة وتاريخا وعادات وتقاليد واخلاقا ومستوى تطور وحضارة . هذه المجتمعات ، وهذا مؤكد ـ قد اخذت تتصل بعضها ببعض منذ القرون الوسطى وقبل ذلك بقليل اتصالا للتجارة والاطلاع وخفت الاتصالات الناجمة عن الحروب . وهذه الاتصالات تطلع القائمين بها على ما عند الشعوب الاخرى من علوم وفنون ومدنية فتسعى لان تقلدها فيها وتنسج على منوالها . وهذه الحروب الصليبية التي نقلت الى الغرب صناعتي الحرير والزجاج .. الى ما هنالك من اكتسابات تسجلها الشعوب من خلال اتصالاتها المستمرة .

ويأتي بعد عامل الاتصال ، عامل وحدة الفكر البشري ووحدة المشاعر الانسانية ووحدة الوسائل والغايات التي تضع على بساط الواقع المعاش كل ما في الحياة الانسانية من علوم وفنون واداب في خدمة الانسان ايا كانت لغته او امته او طريقته في الحياة .

ثم جاءت الحضارة الحديثة بما يسرته من وسائل الاتصال بين الشعوب كالطائرة والباخرة والقطار والسيارة والاذاعة والهاتف والبرق والتلفزيون ، مما افسح المجال لاية امة كي تطلع على ما عند الامم الاخرى، وفي الوقت نفسه يمكن لها ان تقدم لهذه الامم التي اخذت عنها ، ما عندها هي بالمقابل .

واننا نعلم جميعا ان كل اختراع مادي لا بد من ان يكون فكرة في البداية ، وقد يشوبها الكثير من الخيال فاذا انتقلت الفكرة الى صورة على الورق امكن لها ان تنتقل الى حيز الواقع .. ولكن لا بد لنا من ان نذكر ونؤكد ان الحضارة المادية قد ولدها قبل كل شيء الايمان بالعقل والعلم واخضاع مظاهر الحياة للدراسة والتحليل والمنطق ، كما رافق الايمان بالعقل والعلم ، ايمان بالانسان وبتحرره من كل ما يحده عن ان يؤكد ذاته ويبدع وجوده . وسواء اكانت القيم الاخلاقية في مثل هذه الحالة بعد ان تغيرت في المجتمع الصناعي عما كانت عليه في المجتمع الرعوي او الزراعي ، قد تغيرت نتيجة لتغير الفكر والتفكير او لتغير وسائل الانتاج ، فان تغيرها حقيقة واقعة لا ينكره احد .. والذي يعنينا ان نؤكده ونحن على عتبة تطور اجتماعي كبير يمس صميم مجتمعنا العربي ، ان التطور الانساني ليس بهذه السهولة ، والمراحل التي قسمناها هي مراحل افادتنا في الدراسة .. فلا يزال هناك حتى اليوم مجتمعات بشرية اختلطت فيها المجتمعات بعضها ببعض حيث نجد المجتمع الرعوي وكذلك الزراعي والمجتمع الصناعي قد اختلطت بعضها ببعض الى درجة يصعب معها العزل للتاكد من طبيعة هذا التطور الذي مس حياة البشر ومس افكارهم ومشاعرهم ولكنه لا يزال بحاجة الى وقت طويل ليمس وسائلهم وغاياتهم ويضعهم حيث يجب ان يكونوا في مقاعد الريادة البشرية .

الاخلاق في المجتمع العربي

ان الحديث عن المجتمع العربي حديث يتصل اولا ما يتصل بالارض العربية التي نحددها بين المحيط والخليج متخطين بذلك الحدود السياسية للدول العربية القائمة لاعتقادنا ان وحدة الشعب العربي هي حقيقة قائمة وهي اقوى من بعض الحدود السياسية التي تقوم بين دولة ودولة، ولان سير التاريخ سوف ينتصر في النهاية على الحدود السياسية ، لانه ما من عربي الا ويدرك بالبداهة انه اخ لكل عربي في دنيا العرب وان الوحدة العربية الشاملة هدف قومي يسعى له كل عربي مخلص لامته وعروبته .

فاذا تخطينا واقع الارض وقفنا قليلا عند واقع الامة العربية، الذي يتجلى في اللغة العربية والتاريخ العربي ووحدة الاهداف ووحدة الالام

خليل حاوي

في

نهر الرماد

ـ الطبعة الثالثة ـ

الملحمة الكبرى في الشعر العربي الحديث

اضيف اليها نشيدان واعيد النظر في

بعض الاناشيد السابقة

منشورات دار الطليعة ـ بيروت ـ ص.ب ١٨١٣

والامال . فالنصر في اية بقعة عربية هو نصر في كل بقعة عربية ، والدم المسفوك دفاعا عن حق او كرامة فوق ثرى العروبة المقدس هو دائما دم كل عربي لانه دم غال يبذل في سبيل امال غالية .

والامة العربية اذا كانت تشكل واقعا جغرافيا واحدا ، وواقعا تاريخيا واحدا ، فانها ايضا تشكل واقعا اجتماعيا واحدا ، رغم اختلاف التطور تبعا للظروف السياسية والاقتصادية وعوامل التطور الاجتماعي التي رافقت قطرا عربيا ولم ترافق قطرا عربيا اخر وتتجلى وحدة المجتمع العربي في التقاء عدة اخوان من العرب في مكان واحد ، فاذا الكل عروبيون واذا الكل يلتقون عند صعيد الامة العربية واهدافها في التحرر من نير الغاصبين ، وخلق اسباب النهضة الشاملة التي يستفيد منها المواطنون العرب جميعا .

ان وحدة المجتمع العربي لا تمنع اختلاف بعض العادات والتقاليد وكذلك القوانين في بلد عربي عنها في بلد عربي اخر لان التجزئة السياسية وان لم تكن الاصل بقدر ما كانت الشذوذ على القاعدة قد اوجدت الاختلاف في المنابع التي استقى منها كل قطر عربي اصول تطوره وقواعد الاصلاح فيه ، وكذلك الاختلاف في نوع السلطان السياسي الذي خضعت له بحيث يمكن لنا ان نصنف مناحي التطور في ثلاثة اشكال هي اولا نهاية المجتمع الرعوي وبداية المجتمع الزراعي . ثانيا المجتمع الزراعي . ثالثا نهاية المجتمع الزراعي وبداية المجتمع الصناعي. فاذا اردنا تبعا لذلك دراسة الاخلاق العربية وجدناها مقسمة هي الاخرى حسب اشكال التطور الاجتماعي من الرعوي الى الزراعي ، ومن الزراعي الى الصناعي وكان هذا التطور الذي مس كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، مقياس تقييمنا للمعاني الاخلاقية السائدة في هذه المجتمعات ، وهو بداية الدراسة الموضوعية للاخلاق العربية اليوم.. وما ينتظر لها ان تكون عليه في مقبلات الايام .

اننا وقد عرفنا نوعية الاخلاق في المجتمعات الثلاثة الرعوي والزراعي والصناعي امكن لنا ان نحدد طبيعة الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع لنعرف طبيعة المعاني الاخلاقية التي قد تلازم تطوره . الا ان ذلك لا يؤخر او يقدم في طبيعة التطور الاخلاقي لان الاخلاق لا يمكن ان تنهج ويوضع لها قواعد الا اذا نهج تطور المجتمع ووضعت له قواعده واصوله .. ذلك ان الفكر من خلال تماسه مع المجتمع، يحدث التطور الذي لا بد منه ، وهذا التطوروحده هو السبيل الوحيد لقيام المعاني الاخلاقية التي تناسب كل مرحلة من مراحل التطور بحيث يكون التأثير متبادلا اذ كلما تطورت الاخلاق الاجتماعية ، تطور المجتمع وكلما تطور المجتمع تطورت الاخلاق الاجتماعية فالاخلاق في هذا المجال قوة فاعلة ومنفعلة في آن واحد ولكن يشترط لذلك شرط واحد ، هو ان توجد في مجتمع يعتبر نفسه متطورا ومؤمنا بهذا التطور .. والا اذا كان المجتمع محافظا على مكتسباته الحضارية وقيمه ومثله العليا ومعانيه الاخلاقية فان الاخلاق قوة تتأثر ولا تؤثر ، تندفع ولا تقوم بدفع المجتمع الى الامام ولو خطوة واحدة .

ومجتمعنا العربي وقد حوى نماذج ثلاثة للقيم الاجتماعية والمعاني الاخلاقية تبعا لوجود هذه الاشكال الثلاثة من المجتمعات ، يعيش اليوم مرحلة تخبط وقلق ، فالمجتمع الرعوي الذي اخذ يندمج في المجتمع الزراعي يقاوم اشد المقاومة الكثير من التقاليد والاعراف والاخلاق السائدة في المجتمع الزراعي ، ولا يمكن ان يقبل بحال من الاحوال تقاليد واعراف وعادات المجتمع الصناعي واخلاقه . والمجتمع الزراعي اذا كان يحاول ان يهضم المجتمع الرعوي من حيث الشكل ليفرض عليه مضمونه في العادات والمعاني الاخلاقية ، الا انه هو الاخر يقاوم عادات المجتمع الصناعي واخلاقه الجديدة ويعتبرها مسببة في تخلخل قيمه وتشتت وجوده ، لانه يعرض كيانه كله للذوبان وسط هدير الالة واخلاقها ، وقيم الحضارة الصناعية الكاسحة .

اما المجتمع الصناعي او النموذج للمجتمع الصناعي في واقعنا العربي ، فهو بداية وحقيقة وكيان . فهو بداية لانه وافد جديد كفرع في شجرة مسنة فيها وقار الاشجار الكبيرة .. ولكن للفرع ايضا طراوة الشباب واخضرار الامل . وهو حقيقة لانه حقيقة لابد منها اذا اردنا ان لا نكون منعزلين عما حولنا .. فالحياة الاجتماعية في المجتمع الدولي هي حياة المجتمع الصناعي ما في ذلك شك .. والمجتمع الاقوى اليوم هو مجتمع الدولة التي تعرف كيف تصارع خصومها بسلاحهم واشد من سلاحهم وتعرف كيف تبذهم في مضمار المباراة السلمية القائمة على انتاج السلع والادوات الاستهلاكية وخدمة الحضارة . فاذا اردنا لمجتمعنا العربي ان يعرف بشخصيته الى العالم ليكون له كلمة في مشكلات هذا العالم فاننا مضطرون للاخذ بما اخذت به الامم التي سبقتنا في نطاق الاصلاح الاجتماعي وفق مبادىء المجتمع الصناعي غير غافلين عما يميز شخصيتنا القومية وعاداتنا ومثلنا العليا في الحياة . وهو كيان لانه اذا ترسخ فقد شمل كل شيء .. والحضارة القائمة على اسس التقنية والعلم ، هي حضارة قد اشبعت المجتمع الصناعي ترفا حضاريا وقطعت كل جذور الماضي بينه وبين المجتمعات القديمة ، رعوية كانت أم زراعية ، واذا كانت بعض المعاني الاخلاقية السائدة في المجتمع الرعوي يمكن لها ان تعيش ولو قليلا من السنين في المجتمع الزراعي ، الا ان المعاني الاخلاقية التي كانت سائدة في المجتمع الزراعي لا يمكن لها ان تعيش في المجتمع الصناعي ، لان المجتمع الصناعي نفسه لا يمكن ان يقوم كما ينبغي له ان يقوم الا اذا ولدت المعاني الاخلاقية التي تبرر ولادته وتنهي العناصر التي تقاوم هذه الولادة بالذات .

فاذا استعرضنا بعض المواضيع الكبرى التي لا تزال تحتمل المناقشة بين المفكرين العرب الذين يدعون الى قيم المجتمع الزراعي ومثله ومعانيه الاخلاقية ، والمفكرين الاخرين من العرب الذين يدعون الى قيم المجتمع الصناعي ومثله ومعانيه الاخلاقية ، وجدنا ان الخلاف لا يزال دائرا حول قيمة العلم والايمان به ، واخضاع المظاهر الكونية والقيم المطلقة لسلطان العقل ، واعتماد المنطق في تقبل النظريات المتوارثة عن القديم او رفضها، ومفهوم الملكية وحق الملك ، والحرية والديمقراطية ، وسلطان الالة ، وحقوق رأس المال وكذلك واجباته ، قبل الفئات العاملة وفائدة الدولة وهل يجب ان ترث كل عناصر الولاء في المجتمع الزراعي والرعوي ام انها يجب ان تبقى بعيدة عن كل ما يمس هذه الحقوق الشخصية فلا تكون الا شرطي المرور الذي يطفىء الانوار ويشعلها دون ان يكون مولجا بالتعرف على هوية راكبي السيارات وميولهم وامزجتهم وطباعهم ورغباتهم واهدافهم في الحياة . فاذا نفذنا الى اعماق المشكلة وجدنا ان هناك مقومات لكل نهضة ينبغي ان تتم ليستكمل المجتمع العربي مقومات وجوده ومن هذه المقومات حاجة المجتمع للعلم.. ولا نقصد بالعلم هنا بصورة مبدئية الا التعلم لاصول القراءة والكتابة . فالامية في مجتمعنا العربي هي حجر عثرة امام كل تطور صحيح . ولا اعتقد ان هناك انسانا واحدا متعلما يمانع في ان يعلم من حرموا من نعمة القراءة والكتابة .. وكذلك لا اعتقد ان هناك انسانا واحدا ممن حرموا هذه النعمة يمانع في ان يتعلم القراءة والكتابة بالشكل الذي لا يعيقه عن القيام بواجباته الشخصية والعائلية . فاذا استطاع المجتمع العربي ان يتخلص من الامية ومن الجهل في نفس الوقت فانني اعتقد انه سيحل نصف مشكلاته القائمة حلا جذريا .. لان القراءة والكتابة تقود الانسان تلقائيا لان يطلع على ما في المجتمع من عادات ويحاول ان ينقدها نقدا ذاتيا وكذلك لان يطلع على ما لدى الاخرين من افكار ، وان يقارن ذلك كله بما لدى العالم من علوم وفنون وآداب وحضارة ، وان يجاوز في ذلك دور المقلد الى دور المبتكر ويفسح الطريق لرواد الاصلاح كي يروا امامهم جمهورا يفهم ما يقولون له ويتحمس لما يدعونه اليه ، لان دعوات الاصلاح تبقى دعوات جوفاء الى ان تلقى الاذان التي تسمع والعقول التي تفهم ، والقلوب التي تحس . ومجتمعنا العربي بحاجة الى العلم والثقافة واني لاعد قصورنا عن محو الامية ، قصورا اخلاقيا يمس منا الصميم وان كان من دواعي الامل ان المواطنين العرب شعروا بهذا النقص فأخذوا يسدونه بشكل يدعو الى الافتخار والاعجاب حتى لتقع العين على معدمين يمسكون عن افواههم رغيف العيش ليقدموا بدلا منه صفحة بيضاء لاولادهم يكتبون عليها رسالة الانسان عندما يفقه سر الحرف وقدسية الكلمة .

ان القضاء على الامية قضاء على الجهل ، وطريق للمواطن العربي كي يتصل بأخيه العربي في سائر الاقطار العربية ، واخلاق العالم غير اخلاق الجاهل لان العالم يخضع ظواهر الحياة ، والمجتمع للمناقشة فيرفض ما لم يوافق عقله ويقبل ما جاء متفقا واياه ولا نريد ان ندخل في جدل عقيم اذا قلنا ان تأخرنا عن هضم المجتمع الصناعي ومثله ومعانيه الاخلاقية ، امر سوف يضعنا على مفرق الطرق .. لاننا مضطرون لمسايرة التطور الذي بلغه المجتمع الانساني .. وكل تأخير تحصدّ الاجيال القادمة عواقبه السيئة . واتخاذ وسائل المجتمع الصناعي وكذلك القواعد التي قام عليها امر ينبغي له ان يتم ولو قاومته فئات تريد لنفسها البقاء وسط عالم لابقاء فيه الا لمن تسلح باسلحة اليوم .. اما اسلحة الماضي فلا تفيد اليوم شيئا .. واننا مدعوون فرادى وجماعات لان نؤكد ان الايمان بالعلم لا يناقض الايمان بالروح وخلودها .. وان تحرير العقل العربي من بعض الاوهام والاباطيل التي لازمته في عصور الانحطاط ضرورة حياة ووجود وبقاء . وان الاخلاق التي تدعو الى السلوك النبيل والاداب الحسنة هي اخلاق جميلة ، ولكن الاخلاق التي تدعو الى احترام الذات الانسانية وعتقها من قيود الكبت والذل والارهاق دون النظر الى الجنس او اللون او النوع هي أيضًا اخلاق جميلة ينعم بجمالها ملايين البشر دون ان يعتريهم مكروه .. بل على العكس انهم يعيشون سعداء وفي غاية السعادة . وان الاخلاق التي تعلو على حب العائلة او القرية او المدينة لتحب الوطن كله وليس الوطن الصغير الذي نعيش فيه بحدوده السياسية انما الوطن العربي الكبير ، لهي اخلاق وطنية قومية ينبغي ان تكون قانونا اخلاقيا يلتزم به كل مواطن ليحكم بموجبه على كل من يخون الوطن ويطعن العروبة . وان الاخلاق التي تدعو الى العدل في معاملة الضعفاء والمحتاجين بأن تتبناهم الدولة باتخاذها نظام التأمين الاجتماعي، لهي اخلاق تتفق ومبادىء الانسان في عصر التحرر والعدالة والحق . وان الاخلاق التي تدعو الى ان يكون الانسان العربي بوحدة فكره ووحدة شعوره ووحدة وسائله وغاياته ، انسانا يعيش في وطن كريم كما يعيش الكثير من المواطنين في مختلف الاوطان في العالم لهي ايضا اخلاق يمكن ان تكون قدوة ومثالا . وان الاخلاق التي تتعدى نطاق السلوك المهذب لتناقش سلوك الانسان في الحياة وتخضعه لمقاييس الحضارة والتطور لهي اخلاق قد تكون مثالية في مجتمع كمجتمعنا وواقع كواقعنا ولكنها ينبغي ان تكون هدفا من اهداف مجتمعنا العربي الذي استيقظ على هدير الالة في المعامل تصنع القماش ، وفي الحقول تبذر الحب او تحصد السنابل ، وفي السماء تحمل الركاب والبضائع وعلى الطريق تهدر ماضية الى غايتها ، وان يقظة مجتمعنا العربي لن يعقبها رقاد ، لان الرقاد معناه الموت ، بل سيعقبها قيام وسعي وجد وعمل لتحرير الانسان العربي من بعض المعاني الاخلاقية التي تمنعه عن التطور الصحيح ، بعد ان سرت في دمه وفي وجوده الحي ، كثير من المعاني الاخلاقية الجديدة التي ان مضى بها الى النهاية اقام الوجود العربي الاصيل واحتل مقعده في الصفوف الاولى بين المجتمعات العالمية وساهم في حضارة العصر كما ساهم في حضارة الامس ذات يوم .

الاخلاق في المجتمع الانساني

هذه جولة في عالم المعاني الاخلاقية على توالي العصور والمجتمعات تعكس الى حد ما وجهة نظر – قد تكون شاملة – في الاخلاق والمجتمع ، قد لا تضع تعاريف ومعادلات وقيما لكل ما هو اخلاقي ، ولكنها على التحقيق تضع في اطار المناقشة بعض المعاني الاخلاقية المتوارثة لدراستها وأخذ الصالح منها ، وكذلك التعرض بمزيد من الموضوعية لبعض المعاني الاخلاقية في المجتمعات الحديثة للاستفادة منها في تطور المجتمع العربيّ وجعله اكثر تماسا مع الحياة .

ومن خلال هذه الجولة العامة ، تبرز قضية الاخلاق في المجتمع الانساني والقيم الاجتماعية التي حرص رواد علم الاخلاق والمصلحون الاجتماعيون على التأكيد عليها والدفاع عنها لانها لم تكن تمثل آمالهم العظمى في الحياة بقدر ما كانت تمثل وجودهم كله وعالمهم كله .

وقبل ان نتحدث عن الاخلاق في المجتمع الانساني ينبغي ان نسأل هل هناك مجتمع انساني قد عرفته البشرية قديما ؟ أم وعته الان؟ أم تحلم به في المستقبل ؟ ..

والجواب على هذه الاسئلة ان المجتمع الانساني كان أملا ولا يزال أملا .. ولكن هل سيبقى املا ؟

ان انسان الغابة قد حطم الغابة وخرج الى النور ليتصل بالاخرين، وان انسان القارة ركب البحر ليتصل بانسان القارة الاخرى . وان انسان المجتمع البشري الذي خبر شيئا من حياته وحياة الاخرين حوله ، حاول ان يديم هذه الخبرة لتشمل شيئا من سني المستقبل ، وكان ان تطورت البشرية الى ان وصلت الى ايامنا التي نعيشها نحن ، فعرفناها مثل القلب الكبير الذي ينبض حبا وخوفا اذا نزلت بالارض نازلة فمست شعبا من الشعوب ، وقد زادت معرفة العالم بعضه ببعض من هذه الاواصر الشعورية والفكرية التي متنت قواعد السلوك الأخلاقي عندما يعطي حكمه على فعل من الافعال سلبا او ايجابا ، واضحت الاخلاق الانسانية تتعدى نطاق الدول والشعوب والقارات لتمس اول ما تمس ضمير الانسان ووجدانه ، وتكسبه الى جانبها ولو عارض بذلك مصالحه الخاصة ومصالح بني قومه العامة .

ولقد تطورت المعاني الاخلاقية تطورا فرديا ان صحت التسمية او صح التعبير . وكان هذا طابعها في التطور الى ان قام المجتمع الصناعي وولدت الحضارة الحديثة ، فاضحى تطورا جماعيا بمعنى ان المعنى الاخلاقي كان يصدر عن شخص ويمس شخصا آخر .. ولكنه اليوم يصدر عن مجموعة ليس مجموعة أخرى ، ولم يعد السلوك الاخلاقي يقوم بحسب سلوك فرد واحد لانه اضحى يقوم بحسب سلوك مجموعة كبيرة من الناس . وبذلك ولد مفهوم الاخلاق الاجتماعية ولادة جديدة ليس لها علاقة بالاخلاق القديمة لا شكلا ولا مضمونا . وقد سرت هذه المعاني الاخلاقية مع الافكار والمبادىء الاجتماعية داخل حدود الامة وخارج حدودها فاذا وضعنا في الاعتبار ان الاخلاق الحديثة عدا عن كونها سلوكا هي موقف من حضارة العالم والتيارات الفكرية المتضاربة فيه ، عرفنا ان مرحلة من التطور بلغتها الاخلاق في المجتمع الانساني الذي ولد رغم ان الدولة الانسانية لم تقم بعد . ونظرة نلقيها على خريطة العالم ترينا ان تيار الافكار المتصارعة ينقسم الى قسمين كبيرين – وهذا خاص بالامم التي اخذت بالحضارة الصناعية وتوطدت اركان المجتمع الصناعي فيها – وان هذين القسمين يكاد يكون لكل منهما موقفه من المعاني الاخلاقية ومنشأ هذه المعاني وان هذا كله سوف يؤدي بالضرورة اما الى استمرار المفهومين او غلبة احدهما على الاخر وعندئذ تترجح كفة على كفة بدءا من حدود الدولة وانتهاء عند حدود العالم ، ومنذ اللحظة التي يتكون فيها المعنى الاخلاقي الى اللحظة التي ينطلق فيها هذا المعنى الاخلاقي ليشكل قاعدة لضمير الانسان ووجدانه بصفته انسانا يعيش في المجتمع الانساني .

ان الاخلاق في المجتمع الانساني لا يمكن ان تقوم الا اذا انتهت اسباب الحقد والضغينة والبغضاء بين المجتمعات في العالم . وقامت حياة دولية سليمة على اساس من التعاون والحب وتأكدت الى حد كبير ومطلق ان الذات الانسانية هي أغلى ما في الوجود ، وهي الجديرة بالاحترام وتوفير اسباب المعرفة والحياة النبيلة لها .. رغم فوارق القيم في المجتمع الواحد والمجتمعات الاخرى ، ورغم مظاهر الجنس والعرق واللون ، لان الانسان انسان بعقله وقلبه ، لا بجلده او كونه ذكرا او انثى او بانتمائه الى سلالة تدعي لنفسها التفوق على باقي السلالات .

ونضال الانسان الواعي ينبغي ان لا يقف عند تحقيق التربة الصالحة لتنبت فيها اخلاق جديدة تهدف الى اعزاز الانسان واعزاز مجتمعه الصغير ، بقدر ما ينبغي له أن يستمر لتحقيق المعاني الاخلاقية على مستوى انساني ، لان انتصار الانسان على مخلفات القرون المظلمة في اي مكان هو انتصار لكل انسان في اي مكان يعي وجوده ويشعر بضرورة التأكيد على ذاته الانسانية وقيمها الخالدة وسعيها لتحقيق

المجتمع الانساني الفاضل .

والمجتمع الانساني اذا كان املا منذ الف او الفي سنة ، فهو حقيقة واقعة اليوم .. لان انطلاق الانسان عن هذا الكوكب الارضي الى الكواكب الاخرى غدا ممكن التحقيق ، وهذه خطوة الى الامام سوف تقرب ولا شك بين شعوب الكرة الارضية ، ومجتمعاتها ، والبشر الذين يعيشون عليها لاقامة وحدة بشرية تتخطى الحدود والسدود والقيود الموضعية ، لتنطلق في طريق انساني بحت وتستطيع تحقيق حلم الانسان باكتشاف العالم المحيط بارضنا وارتياده .

فاذا بحثنا عن بذور الاخلاق في المجتمع الانساني وجدناها نامية متصلة اشبه بعرق الذهب في الممر الصخري الطويل .. فهي مقاومة كل دعوة عنصرية وكل اتجاه للتفريق بين الناس بحسب اجناسهم او الوانهم او عروقهم . وهي دعوة الى احترام الذات الانسانية واعزازها والرقي بها الى مصاف القيم الخالدة في الحياة . وهي دعوة الى نبذ القوة كوسيلة لتفاهم بين الامم وفرض شروط الغالب عى المغلوب . وهي تكريس لمبادىء العدالة والحق وعدم التعدي على حق من الحقوق سواء كان هذا الحق لانسان واحد او لامة صغيرة . وهي نضال لا ينتهي ضد كل تبرير لخرق قواعد العدالة والحق باسم المصلحة العليا لامة من الامم . وهي ايمان بحرية الناس . لانهم ولدوا احرارا وينبغي لهم ان يعيشوا في رحاب هذه الحرية .

ووقفة عند المنابع الصافية لاخلاق امتنا العربية التي جف بعضها وعرقلت جرى بعضها الحشائش والطحالب ، نجد ان المعاني الاخلاقية في مجتمعنا العربي سواء عاشت في مجتمع رعوي او زراعي او صناعي هي المعاني الاخلاقية التي اغنت وجودها في الانسان فاكدت حريته وتحرره ، وفتحت له طريقا للمعرفة واكتساب منجزات البشرية في جميع الحقول . وجعلت من الانسان العربي مواطنا في دولة وفردا في مجتمع ، وانسانا من رعايا المجتمع الانساني ، لان امتنا العربية قد التقت ذات يوم على محاربة كل تفرقة عنصرية او جنسية او لونية ، او طائفية ، ولا تزال على ذات الطريق . واذا كانت قد تلكات بعض الوقت فان يقظتها في العصر الحديث قمينة بان تجعلها رائدة الامم الى تحقيق آمال الانسان العربي في المعاني الاخلاقية الرفيعة التي تسود مجتمعنا الصغير ، والمجتمع الانساني الكبير مؤكدة في ذلك كله ان الانسان هو حقيقة هذا العالم الخالدة وما عداه فباطل وزائل .

حلب — علي بدور

دار الآداب تقدم

عاصفة على السكر

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

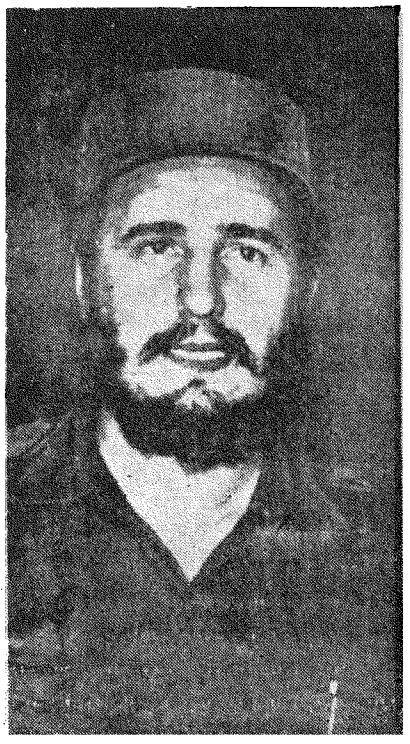

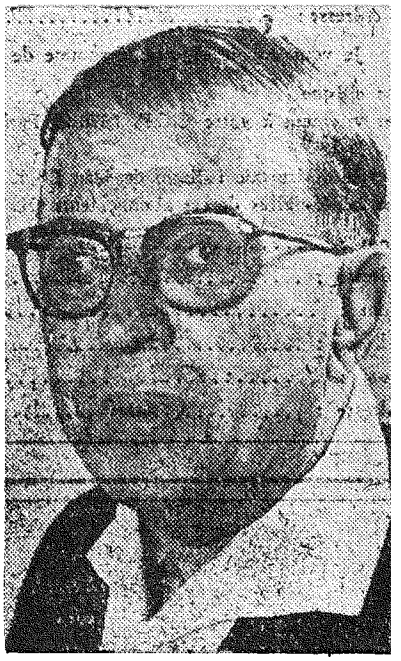

كتاب رائع يتحدث فيه الكاتب الفرنسي الكبير عن الثورة الكوبية التي قادها فيديل كاسترو ، ويفضح خطط الاستعمار الاميركي لخنق اقتصاديات كوبا ،ويصف مختلف الاوضاع السياسية والاجتماعية التي ادت الى نشوب هذه الثورة التي تعتبر من اروع الثورات في تاريخ الشعوب .

كل ذلك باسلوب تحليلي طريف وعميق امتاز به جان بول سارتر ، وروح تحررية تجعل هذا الكاتب العالمي في طليعة المفكرين الاحرار الذين عرفهم تاريخ الفكر والسياسة .

صدر حديثا

الثمن ثلاث ليرات لبنانية